سورة الحجـــــر

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

فإن قيل: كيف قالوا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** اعترفوا بنبوته؛ إذ الذكر هو القرآن الذي نزل عليه ثم وصفوه بالجنون؟

قلنا: إنما قالوا ذلك استهزاءً وسخريةً لا تصديقًا واعترافًا، كما قال فرعون لقومه: **﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾**(١)، وكما قال قوم شعيب عليه السلام: **﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾**(٢)، ونظائره كثيرة.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: يا أيها الذي تدعي الذكر أنك نزل عليك الذكر.

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾**(٣)، والوارث هو الذي يتجدد له الملك بعد فناء المورث، والله تعالى إذا مات الخلائق لم يتجدد له ملك؛ لأنه لم يزل مالكًا للعالم بجميع ما فيه ومن فيه؟

قلنا: الوارث في اللغة عبارة عن الباقي بعد فناء غيره، سواء تجدد له من بعده ملك أو لا، ولهذا يصح أن يقال لمن أخبر أن زيدًا مات وترك ورثة: هل ترك لهم مالاً أو لا؟ فيكون معنى الآية: ونحن الباقون بعد فناء الخلائق.

الثاني: أن الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون يسمون بذلك أيضًا إما مجازًا أو خلافة عن الله تعالى كالعبد المأذون والمكاتب، ويدل عليه قوله تعالى: **﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾**(٤)، فإذا مات الخلائق كلهم سلمت الأملاك كلها لله تعالى عن ذلك القدر من

(١) الشعراء: ٢٧.
(٢) هود: ٨٧.
(٣) الحجر: ٢٣.
(٤) آل عمران: ٢٦.

التعلق، فبهذا الاعتبار كانت الوراثة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1]، والملك له أزلاً وأبدًا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ دلَّ على الشمول والإحاطة وأفاد التوكيد، فما فائدة قوله: «أَجْمَعُونَ»؟

قلنا: قال سيبويه والخليل: هو توكيد يفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن، فلا يكون تحصيل الحاصل، بل تكون نسبة أجمعون كنسبة كلهم إلى أصل الجملة، وقال المبرد: قوله تعالى: «أَجْمَعُونَ» يدل على اجتماعهم في زمان السجود، وكلهم يدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكة كلهم معًا في زمان واحد. واختار ابن الأنباري هذا القول، واختار الزجاج وأكثر الأئمة قول سيبويه وقالوا: لو كان الأمر كما زعم المبرد لكان «أجمعون» حالاً لوجود حد الحال فيه، وليس بحال لأنه مرفوع ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١].

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بما قبله من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ الآيتين؟

قلنا: لما أنزل الله ﷻ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي...﴾ الآيتين ولم يعين أهل المغفرة وأهل العذاب غلب الخوف على الصحابة ﷺ، فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم عليه السلام ليزول خوف الصحابة وتسكن قلوبهم، فإن ضيف إبراهيم عليه السلام جاءوا ببشارة للولي وهو إبراهيم، وعقوبة للعدو وهم قوم لوط عليه السلام، وكذلك تنزل الآيتين المتقدمتين على الولي والعدو لا على الولي وحده.

الثاني: أن وجه الارتباط أن العبد وإن كان كثير الذنوب والخطايا غير طامع في المغفرة، لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه بعدما شاخ، وبلغ مائة سنة أو قريبًا منها.

---

(١) غافر: ١٦.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠].

فإن قيل: كيف قالت الملائكة: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: قضينا، والقضاء لله تعالى لا لهم؟

قلنا: إسناد التقدير للملائكة هو مجاز، كما يقول خواص الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا ونهينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾، وأصحاب الحجر قوم صالح، والحجر اسم واديهم أو مدينتهم على اختلاف القولين، وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح، فكيف يكذبون المرسلين؟

قلنا: مَن كذَّب رسولاً واحدًا فكأنما كذَّب الكل؛ لأن كل الرسل متفقون في دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال في سورة «الرحمن»: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾؟

قلنا: الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: قد ذكرناه في مثل هذا السؤال في سورة «هود».

والثاني: أن المراد هنا أنهم يسألون سؤال توبيخ وهو سؤال: لم فعلتم؟ والمراد ثم أنهم لا يسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال: هل فعلتم، أو يقال: إن في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها يسألون، وفي بعضها لا يسألون، وتقدم نظيره.

***

obeikandl.com

سورة النحـــــل

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

فإن قيل: لم قدمت الإراحة وهي مؤخرة في الواقع على السروح وهو مقدم في الواقع في قوله تعالى: **﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾**؟

قلنا: لأن الأنعام في وقت الإراحة وهي ردها عشيًّا إلى المراح تكون أجمل وأحسن؛ لأنها تقبل ملأى البطون حاملة الضروع متهادية في مشيها يتبع بعضها بعضًا بخلاف وقت السروح، وهو إخراجها إلى المرعى، فإن كل هذه الأمور تكون على ضد ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾**[1] إن أريد به لم تكونوا بالغيه عليها إلا بشق الأنفس فلا امتنان فيه، وإن أريد به لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشق الأنفس فهم لا يبلغونه عليها أيضًا إلا بشق الأنفس، فما فائدة ذلك؟ وفي قوله تعالى: **﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءوفٌ رحِيمٌ﴾**؟

قلنا: معناه وتحمل أثقالكم، أي: أجسامكم وأمتعتكم معكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها بأنفسكم من غير أمتعتكم إلا بجهد ومشقة، فكيف لو حملتم أمتعتكم على ظهوركم؟ والمراد بالمشقة: المشقة التي تنشأ من المشي، أو من المشي مع الحمل على الظهر لا مطلق مشقة السفر، وهذا مخصوص بحال فقد الإبل، فظهر فائدة ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

[النحل: ٨].

إن قيل: قوله تعالى: **﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾** يقتضي حرمة أكل الخيل كما اقتضاه في البغال والحمير من حيث إنه لم ينص على منفعة أخرى فيها غير

(١) النحل: ٧.

الركوب والزينة، ومن حيث إن التعليل بعلة يقتضي الانحصار فيها كقولك: فعلت هذا لكذا، فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره أوله مع غيره إلا إذا كان أحدهما جهة في الآخر.

قلنا: ينتقض بالحمل عليها والحراثة بها، فإن ذلك مباح مع أنه لم ينص عليه.

فإن قيل: إنما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام، فإنه منصوص عليه فيها بقوله تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ**﴾[1]، والمراد به كل منفعة معهودة منها عرفًا، لا كل منفعة، فثبت مثل ذلك في الخيل والبغال والحمير.

قلنا: لو كان ثبوته فيها بالقياس على ثبوته في الأنعام لثبت حل الأكل في الخيل بالقياس على ثبوته في الأنعام أيضًا، ولو ثبت حل الأكل في الخيل بالقياس لثبت في البغال والحمير، كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتًا شاملاً للكل بالقياس على ثبوته في الأنعام.

والجواب عن الجهة الثانية في أصل السؤال: أن هذه اللام ليست لام التعليل بل لام التمكين؛ كقوله تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا**﴾[2]، ومع هذا يجوز في الليل غير السكون.

وفي قوله تعالى: ﴿**يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١١].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى في وصف ماء السماء: ﴿**يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾، ولم يقل كل الثمرات، مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء؟

قلنا: كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما ينبت في الدنيا بعض منها أنموذجًا وتذكرة، فالتبعيض بهذا الاعتبار، فيكون المراد بالثمرات ما هو أعم من ثمرات الدنيا، ومن يجوِّز زيادة «من» في الإثبات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا.

وفي قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ**﴾ المراد بمن لا يخلق الأصنام بدليل

(١) النحل: ٥.
(٢) يونس: ٦٧.

قوله تعالى بعده: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] فكيف جيء بـ«من» المختصة بأولى العلم والعقل؟

قلنا: خاطبهم على معتقدهم؛ لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم، ونظير هذا قوله تعالى في الأصنام أيضًا: ﴿لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا...﴾[1] الآية، فأجرى عليهم ضمير أولى العلم والعقل لما قلناه، ويرد على هذا الجواب أن يقال: إذا كان معتقدهم خطأً وباطلاً فالحكمة تقتضي أن ينزعوا عنه ويقلعوا، لا أن يبقوا عليه ويقروا في خطابهم على معتقدهم إيهامًا لهم أن معتقدهم حق وصواب.

وجوابه: أن الغرض من الخطاب الإفهام، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال: أفمن يخلق كما لا يخلق، لاعتقدوا أن المراد من الثاني غير الأصنام من الجماد.

الثاني: قال ابن الأنباري: إنما جاز ذلك؛ لأنها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه في اقتضاء «من» كما غلب حرامًا على الدواب في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ...﴾[2] الآية، وكما في قول العرب: اشتبه على الراكب، وجملة: فما أدري من ذا ومن ذا.

فإن قيل: هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام، وسموها آلهة تشبيهًا بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فظاهر الإلزام يقتضي أن يقال لهم: أفمن يخلق كمن لا يخلق؟

قلنا: لما سووا بين الأصنام وخالقها ﷻ في تسميتها باسمه وعبادتها كعبادته فقد سووا بينها وبين خالقها قطعًا، فصح الإنكار بتقديم أيهما كان، وإنما قدم في الإنكار عليهم ذكر الخالق، إما لأنه أشرف، أو لأنه هو المقصود الأصلي من هذا الكلام تنزيهًا له وإجلالاً وتعظيمًا.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى في وصف الأصنام **﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾** بعد قوله تعالى: **﴿أَمْوَاتٌ﴾**؟

---

(١) الأعراف: ١٩٥.

(٢) النور: ٤٥.

قلنا: فائدته أنها أموات لا يعقب موتها حياة احترازًا عن أموات يعقب موتها حياة، كالنطف والبيض والأجساد الميتة، وذلك أبلغ في موتها كأنها قال: أموات في الحال غير أحياء في المآل.

الثاني: أنه ليس وصفًا لها بل لعبادها، معناها: وعبادها غير أحياء القلوب.

الثالث: أنما قال: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾؛ ليعلم أنه أراد أمواتًا في الحال، لا أنها ستموت كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1].

فإن قيل: كيف عاب الأصنام وعبادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث فقال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2]، والمؤمنون الموحدون كذلك؟

قلنا: معناه: وما يشعر الأصنام متى يبعث عبادها، فكيف تكون آلهة مع الجهل؟ أو معناه: وما يشعر عبادها وقت بعثهم لا مفصلاً ولا مجملاً لأنهم ينكرون البعث، بخلاف الموحدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملاً أنه يوم القيامة، وإن لم يشعروه مفصلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [النحل:٢٤].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ كيف يعترفون بأنه من عند الله تعالى بالسؤال المعاد في ضمن الجواب ثم يقولون: هو أساطير الأولين؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة «الحجر» في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[4]؟

---

(١) الزمر: ٣٠.
(٢) النحل: ٢١.
(٣) الحجر: ٦.
(٤) الأنعام: ١٦٤.

قلنا: معناه: ومن أوزار إضلال الذين يضلونهم، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة ووزر كفر من أضلوهم تسببًا، فقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ يعني أوزار الذنوب التي باشروها. وأما قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فمعناه: وزر لا مدخل لها فيه ولا تعلق له بها مباشرةً ولا تسببًا، ونظير هاتين الآيتين الآيتان الأخريان في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿أَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وجوابهما مثل جواب هاتين الآيتين.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ...﴾ الآية، يدل على أن المعدوم شيء، ويدل على أن خطاب المعدوم جائز، والأول منتفٍ عند أكثر العلماء، والثاني منتفٍ بالإجماع.

قلنا: أما تسميته شيئًا فمجاز باعتبار ما يئول إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[3].

وأما الثاني، فإن هذا خطاب تكوين يظهر به أثر القدرة، فيمتنع أن يكون المخاطب به موجودًا قبل الخطاب؛ لأنه إنما يكون بالخطاب، فلا يسبقه بخلاف خطاب الأمر والنهي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ...﴾[4] الآية، بل أولى لأنه ثم وصف ما لا يعقل بخصوصه بلفظ «من» وهو الحية والأنعام، وهنا لو قال من في السموات ومن في الأرض لا يلزم وصف ما لا يعقل بخصوصه وتعيينه بلفظة «من» بل المجموع؟

---

(١) العنكبوت: ١٢.
(٢) الحج: ١.
(٣) الزمر: ٣٠.
(٤) النور: ٤٥.

قلنا: لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها، فجاء بما التي تعم النوعين وتشملهما، ولو جاء بمن لخص العقلاء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾

[النحل:٦١].

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾** يقتضي أنه لو آخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس، ولأهلك جميع الدواب غير الناس، ومؤاخذة البريء بسبب ظلم الظالم لا يحسن بالحكيم؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الكفر، وبالدابة الظالمة وهي الكافر، كذا قاله ابن عباس - رضي الله عنهما.

وقيل: معناه: لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء.

الثاني: يجوز أن يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين مبالغة في إعدام الظلم ونفي وجود أثره، حتى لا يوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم، ودليل جواز ذلك ما وجد في زمن نوح عليه السلام، فإنه أهلك بشؤم ظلم قوم نوح جميع دواب الأرض، وما نجا إلا من في السفينة ولم يبق على ظهر الأرض دابة، ولذا قال تعالى: **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾**[1]، ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التي اقتضت فعله عوّض البريء في الآخرة ما هو خير وأبقى.

الثالث: أن كل إنسان مكلف فهو ظالم إما لنفسه أو لغيره؛ لأنه لا يخلو عن ذنب صغير أو كبير، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضًا؛ لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس، وإذا عدم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها.

فإن قيل: لا نسلم أن غير الإنسان من الحيوان مخلوق لمصالح الإنسان، ومستنده أنه كان مخلوقًا قبل خلق الإنسان بالنقل عن الكتب الشرعية وغيرها، وقد جاء مصرحًا به في الحديث في باب الخلق من جامع الأصول سلمنا أنه مخلوق لمصلحة الإنسان، لكن هلاك

(١) الأنفال: ٢٥.

غير الإنسان معه يخفف عنه ألم المصيبة، لاسيما إذا كان الهالك معه من جنسه، ولهذا قيل: المصيبة إذا عمت طابت. سلمنا أن إهلاك غيره معه مؤلم له، لكن لو كان إهلاكه معه؛ لأنه خلق لمصلحته فأهلك تبعًا له لاستغنائه عنه أو لزيادة الإيلام، فالبار أيضًا خلق لمصلحته على قولكم، فلم كان إهلاك الحيوان عقوبة للإنسان أولى من إهلاك النبات، ولم يقل: ما ترك عليها من دابة ونبات أو من شيء؟

قلنا: الجواب عن الأول قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[1]، وخلقه قبل الإنسان لا ينفي خلقه لمصلحة الإنسان، كما يعد عظماء الناس الدور والقصور والخدم والحشم والدواب والثياب لأولادهم وأولاد أولادهم قبل وجودهم.

وعن الثاني: أنَّا لا ندعي أنه يهلك مع الإنسان بل قبله لتألمه مشاهدة هلاك محبوبه ومألوفه.

وعن الثالث: أن المراد ما ترك عليها من دابة بواسطة منع المطر فيعدم النبات، ثم يعد بواسطة عدمه غير الإنسان من الحيوان، ثم يعدم الإنسان، كذا جاء في تفسير هذه الآية والآية التي في آخر سورة «فاطر»، وهذا الترتيب أبلغ في العذاب وأعظم في العقاب من تقديم إهلاك الحيوان على النبات؛ لأن الإنسان إذا بقي حيوانه بلا علف كان أوجع مما إذا بقي علفه بلا حيوان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ**﴾، ولم يقل في الجبال وفي الشجر، والاستعمال إنما هو بـ«في»، يقال: اتخذ فلان بيتًا في الجبل أو في الصحراء أو نحو ذلك؟

قلنا: قال الزمخشري -رحمه الله: إنما أتى بلفظة «من»؛ لأنه أراد معنى البعضية، وألا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر ولا في كل مكان من الجبل والشجر. وأنا أقول: إنما ذكره بلفظة «من»؛ لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر كما نشاهد ونرى من

(١) البقرة: ٢٩.

بيوت النحل؛ لأنه يتخذ من طين أو عيدان في الجبل والشجر كما تتخذ الطيور، فلو أتى بلفظة «في» لم تدل على هذا المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:٧٢].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وأزواجنا لمن من أنفسنا؛ لأنهن لو كن من أنفسنا لكن حرامًا علينا، فإن المتفرعة من الإنسان لا يحل له نكاحها ؟

قلنا: المراد بهذا أنه خلق آدم ثم خلق منه حواء، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2].

الثاني: أن المراد من جنسكم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾، فعبر بـ«الواو» و«النون» وهما من خواص مَن يعقل؟

قلنا: كان فيمن يعبدونه من دون الله من يعقل كالعزير وعيسى والملائكة -عليهم الصلاة والسلام- فغلبهم.

فإن قيل: لم أفرد في قوله تعالى: ﴿مَا لاَ يَمْلِكُ﴾، ثم جمع في قوله: ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾؟

قلنا: أفرد نظرًا إلى لفظ «ما»، وجمع نظرًا إلى معناها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

(١) الشعراء: ٤٩.
(٢) النساء: ١.
(٣) التوبة: ١٢٨.

﴿الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾[1] أفرد الضمير نظرًا إلى لفظها، وجمع الظهور نظرًا إلى معناها.

فإن قيل: ما فائدة نفي استطاعة الرزق بعد نفي ملكه والمعنى واحد؛ لأن نفي ملك الفعل هو نفي استطاعته، والرزق هنا اسم مصدر بدليل إعماله في «شَيْئًا»؟

قلنا: ليس في يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق، بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقًا؛ معناه لا يملكون أن يرزقوا، ولا استطاعة لهم أصلاً في رزق أو غيره لأنهم جماد.

الثاني: أنه لو قدر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه كان مفيدًا أيضًا على اعتبار كون الرزق اسمًا للعين، ولأن الإنسان يجوز ألا يملك الشيء ولكن يستطيع أن يملكه بخلاف هؤلاء، فإنهم لا يملكون ولا يستطيعون أن يملكوا.

وفي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: «**مَّمْلُوكًا**» بعد قوله: «**عَبْدًا**» وما فائدة قوله: ﴿**لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ**﴾ بعد قوله: «**مَّمْلُوكًا**»؟

قلنا: لفظ العبد يصلح للحر والمملوك؛ لأن الكل عبيد الله تعالى، وقال الله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ**﴾، فقال مملوكًا لتمييزه عن الحر، وقال: ﴿**لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ**﴾ لتمييزه عن المأذون والمكاتب، فإنهما يقدران على التصرف والاستقلال.

فإن قيل: المضروب به المثل اثنان وهما المملوك والمرزوق رزقًا حسنًا، فظاهره أن يقال: هل يستويان، فكيف قال تعالى: «**يَسْتَوُونَ**»؟

قلنا: لأنه أرد جنس المماليك وجنس المالكين لا مملوكًا معينًا ولا مالكًا معينًا.

الثاني:أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع.

الثالث: أن «من» تقع على الجمع، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث يلزم منه أن

(١) الزخرف: ١٢، ١٣.

يصير المعنى ضرب الله مثلاً عبدًا مملوكًا وجماعة مالكين، هل يستوون؟ إنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع في التمثيل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

فإن قيل: «**أَوْ**» في الخبر للشك، والشك على الله تعالى محال، فما معنى قوله: **﴿إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾**؟

قلنا: «**أَوْ**» هنا بمعنى (بل) كما في قوله تعالى: **﴿إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾**[(١)]، وقوله تعالى: **﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾**[(٢)]، وقوله: **﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾**[(٣)]، ويرد على هذا أن «بل» للإضراب، والإضراب رجوع عن الإخبار وهو على الله محال.

وقيل: هي بمعنى «الواو» في هذه الآيات.

وقيل: «أو» للشك في الكل لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى، وكذا في قوله: **﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾** يعني بالنسبة إلى نظر النبي ﷺ.

وقال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكن المراد وصف قدرة الله على سرعة الإتيان بها متى شاء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالله جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾**، ولم يقل: والبرد، مع أن السرابيل وهي الثياب تلبس لدفع الحر والبرد وهي مخلوقة لهما؟

قلنا: حذف ذكر أحدهما لدلالة ضده عليه كما في قوله تعالى: **﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾**[(٤)]، ولم

---

(١) الصافات: ١٤٧.
(٢) البقرة: ٧٤.
(٣) النجم: ٩.
(٤) آل عمران: ٢٦.

يقل: والشر، كما قال الشاعر:

ومَـــا أدرِي إذَا يَمَّمْـــتُ أرْضًـــا أريـــدُ الخـــيرَ أيهُـــمَا يَلينـــي(١)

أي: أريد الخير لا الشر، أو أريد الخير وأحذر الشر.

فإن قيل: لم كان ذكر الخير والحر أولى من ذكر الشر والبرد؟

قلنا: لأن الخير مطلوب العباد من ربهم ومرغوبهم إليه، أو لأنه أكثر وجودًا في العالم من الشر، وأما الحر فلأن الخطاب بالقرآن أول ما وقع مع أهل الحجاز، والوقاية من الحر أهم عندهم؛ لأن الحر في بلادهم أشد من البرد.

وفي قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل:٨٣].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: **﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾** مع أن كلهم كافرون؟

قلنا: قال الزمخشري: الأحسن أن المراد بالأكثر هنا الجمع، وفي هذا نظر؛ لأن بعض الناس لا يجوز إطلاقًا اسم البعض على الكل؛ لأنه ليس لازمًا له بخلاف عكسه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

فإن قيل: ما فائدة قول المشركين عند رؤية الأصنام: **﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾**، والله تعالى أعلم بذلك؟

قلنا: لما أنكروا الشرك بقولهم: **﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾** عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم: **﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا﴾** أي: قد أقررنا بعد الإنكار وصدقنا بعد الكذب طلبًا للرحمة وفرارًا من الغضب، فكان هذا القول

---

(١) ديوان المثقب العبدي من قصيدة مطلعها:

أفـــاطِمُ قبـــل بَينِـــكِ مَتِّعـــيني وَمَنعُـــكِ مـــا سَـــألتُكِ أن تَبـــيني

على وجه الاعتراف منهم بالذنب لا على وجه إعلام من لا يعلم.

الثاني: أنهم لما عاينوا عظيم غضب الله تعالى وعقوبته قالوا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ رجاء أن يلزم الله الأصنام ذنوبهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون لها العقل والتمييز فيخف عنهم العذاب.

فإن قيل: لم قالت الأصنام للمشركين: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وكانوا صادقين فيما قالوا؟

قلنا: إنما قالت لهم ذلك لتظهر فضيحتهم، وذلك أن الأصنام كانت جمادًا لا تعرف من يعبدها، فلم تعلم أنها عبدوها في الدنيا فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، فإذا كان القرآن تبيانًا لكل شيء من أمور الدين، فمن أين وقع بين الأمة في أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل العريض؟

قلنا: إنما وقع الخلاف بين الأئمة؛ لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين ليس مبينًا في القرآن نصًّا بل بعضه مبين وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال، وطريق النظر والاستدلال مختلفة فلذلك وقع الخلاف.

فإن قيل: كثير من أحكام الشريعة لم تعلم من القرآن نصًّا ولا استنباطًا كعدد ركعات الصلاة، ومقادير باقي الأعضاء، مدة السفر والمسح والحيض، ومقدار حد الشرب، ونصاب السرقة وما أشبه ذلك مما يطول ذكره؟

قلنا: القرآن تبيان لكل شيء من أمور الدين؛ لأنه نص على بعضها، وأحال على السنة في بعضها في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[2]، وقوله

(١) مريم: ٨٢.
(٢) الحشر: ٧.

تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[١]، وأحال على الإجماع أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾[٢] الآية، وأحال على القياس أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٣]، والاعتبار: النظر والاستدلال، فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن فصح كونه تبيانًا لكل شيء.

في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤].

فإن قيل: كيف وحدت القدم ونكرت في قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ ولم يقل: القدم أو الأقدام، وهو أشد مناسبة لجمع الإيمان؟

قلنا: وحدت ونكرت في قوله تعالى لاستعظام أن تزل قدم واحدة على طريق الجنة فكيف بأقدام كثيرة؟

فإن «مَن» تتناول الذكر والأنثى لغةً، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ...﴾[٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ...﴾[٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٧]، ونظائره كثيرة، فكيف قال تعالى هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾[٨].

قلنا: إنما صرَّح بذكر النوعين هنا لسبب اقتضى ذلك، وهو أن النساء قلن: ذكر الله تعالى الرجال في القرآن بخير ولم يذكر النساء بخير، فلو كان فيها خير لذكرنا به، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ الآية، وأنزل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ

(١) النجم: ٣.
(٢) النساء: ١١٥.
(٣) الحشر: ٢.
(٤) الأنعام: ١٦٠.
(٥) آل عمران: ٩٧.
(٦) الزلزلة: ٧.
(٧) البقرة: ١٨٥.
(٨) النحل: ٩٧.

﴿الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فذهب عن النساء وهم تخصيصهن عن العمومات.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، وقد رأينا كثيرًا من الصلحاء والأتقياء قطعوا أعمارهم في المصائب والمحن وأنواع البلايا باعتبار الأمثل فالأمثل إلى الأنبياء؟

قلنا: المراد بالحياة الطيبة الحياة في القناعة. وقيل: في الرزق الحلال. وقيل: في رزق يوم بيوم. وقيل: التوفيق للطاعات. وقيل: في حلاوة الطاعات، وقيل: في الرضا بالقضاء. وقيل: المراد به الحياة في القبر كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]، وقيل: المراد به الحياة في الدار الآخرة، وهي الحياة الحقيقية؛ لأنها حياة لا موت بعدها دائمة في النعيم المقيم، والظاهر أن المراد به الحياة في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾[2]، وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، وكثير من الصحابة وغيرهم كانوا كافرين، فهداهم الله تعالى إلى الإيمان؟

قلنا: المراد من هذا الكافرون الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر ويؤيده ما بعد ذلك من الآيتين.

فإن قيل: ما معنى إضافة النفس إلى النفس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[4] والنفس ليس لها نفس أخرى؟

قلنا: النفس اسم للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير، وقيل:

(١) آل عمران: ١٦٩.
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) آل عمران: ١٤٨.
(٤) النحل: ١١١.

هي اسم لجملة الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[٢]، والنفس أيضًا اسم لعين الشيء وذاته. وكما يقال: نفس الذهب والفضة محبوبة: أي عينهما وذاتهما، فالمراد بالنفس الأولى الإنسان، وبالثانية ذاته، فكأنه يوم يأتي كل إنسان يجادل عن نفسه: أي ذاته لا يهمه شأن غيره، كلٌّ يقول نفسي نفسي، فاختلف معنى النفسين.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، والإذاقة لا تناسب اللباس وإنما تناسبه الكسوة؟

قلنا: الإذاقة تناسب المستعار له وهو الجوع من حيث إن الجوع يقتضي الأكل فيقتضي الذوق، وإن كانت لا تناسب المستعار وهو اللباس، والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس، ولا تناسب المستعار له وهو الجوع، وكلاهما من دقائق علم البيان، يسمى الأول تجريد الاستعارة، والثاني ترشيح الاستعارة فجاء القرآن العزيز في هذه الآية بتجريد الاستعارة، وقد ذكرنا تمام هذا في كتابنا «روضة الفصاحة» ولباس الجوع والخوف استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف من الصفرة والنحول، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾[٣]، استعار اللباس لما يظهر على المتقي من أثر التقوى.

وقيل: إن فيه إضمارًا تقديره: فأذاقها الله طعم الجوع وكساها لباس الخوف.

* * *

(١) الأنبياء: ٣٥.
(٢) المائدة: ٤٥.
(٣) الأعراف: ٢٦.

سورة الإســـــراء

وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ ولم يقل: بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بصفيه ونحو ذلك، مع أن المقصود من ذلك الإسراء تعظيمه وتبجيله؟

قلنا: إنما سمَّاه عبدًا في أرفع مقاماته وأجلها وهو هذا، وقوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[1] كيلا تغلط فيه أمته وتضل به كما ضلت أمة المسيح به فدعته إلهًا. وقيل: كيلا يتطرق إليه العجب والكبر.

فإن قيل: الإسراء لا يكون إلا بالليل؛ فما فائدة ذكر الليل؟

قلنا: فائدته أنه ذكر منكرًا ليدل على قصر الزمان الذي كان فيه الإسراء والرجوع، مع أنه كان من مكة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة، وذلك لأن التنكير يدل على البعضية، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة (من الليل) أي: بعض الليل؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾[2]، فإنه أمر بالقيام في بعضه.

فإن قيل: أي حكمة في نقله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم العروج به من بيت المقدس إلى السماء، وهلا عرج به من مكة إلى السماء دفعة واحدة؟

قلنا: لأن بيت المقدس محشر الخلائق، فأراد الله تعالى أن يطأها قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم عليها ببركة أثر قدمه ﷺ.

الثاني: أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء -عليهم الصلاة والسلم- فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته ﷺ.

---

(١) النجم: ١٠.
(٢) الإسراء: ٧٩.

الثالث: أنه أسرى به إلى البيت المقدس ليشاهد من أحواله وصفاته ما يخبر به كفار مكة صبيحة تلك الليلة، فيدلهم إخباره بذلك مطابقًا لما رأوا وشاهدوا على صدقه في حديث الإسراء.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، ولم يقل: باركنا عليه أو باركنا فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله، خصوصًا المسجد الأقصى؟

قلنا: أراد البركة الدنيوية بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة وذلك حوله لا فيه.

وقيل: أراد البركة الدينية، فإنه مقر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ومتعبدهم ومهبط الوحي والملائكة، وإنما قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؛ ليكون بركته أعم وأشمل، فإنه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض بلاد الشام وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس؛ ولأنه إذا كان هو الأصل وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركًا فيه بالطريق الأولى، بخلاف العكس.

وقيل: المراد البركة الدنيوية والدينية ووجههما ما مر.

وقيل: المراد باركنا حوله من بركة نشأت منه فعمت جميع الأرض، فإن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت الصخرة التي في بيت المقدس.

وفي قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

فإن قيل: ما وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ بما قبله ومناسبته له؟

قلنا: معناه: لا تتخذوا من دوني ربًّا فتكونوا كافرين، ونوح كان عبدًا شكورًا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه، فتأسوا به في الشكر كما تأسى به آباؤكم.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، ولم يقل: فعليها، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[(١)]؟

قلنا: اللام هنا بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[(٢)]، وقوله تعالى:

(١) فصلت: ٤٦.

(٢) الصافات: ١٠٣.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾[١].

وقيل: معناه: فلها رجاء بالرحمة، أو فلها مخلص بالتوبة والاستغفار، والصحيح أن (اللام) هنا على بابها؛ لأنها للاختصاص، وكل عامل مختص بجزاء عمله، حسنة كانت أو سيئة، وقد سبق مثل هذا مستوفى في آخر سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾، وقال في قصة مريم وعيسى -عليهما السلام: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] مع أن عيسى ﷺ كان وحده آيات شتى حيث كلَّم الناس في المهد، وكان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق الطير وغير ذلك، وأمه وحدها كانت آية؛ حيث حملت من غير فحل؟

قلنا: إنما أراد به الآية التي كانت مشتركة بينهما ولم تتم إلا بهما، وهي ولادة ولد من غير فحل، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر.

الثاني: أن فيه آية محذوفة إيجازًا واختصارًا، تقديره: وجعلناها آية وابنها آية، وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، والإبصار من صفات ما له حياة، والمراد بآية النهار إما الشمس أو النهار نفسه وكلاهما غير مبصر؟

قلنا: المبصرة في اللغة بمعنى المضيئة، نقله الجوهري. وقال غيره: معناه بينة واضحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آية واضحة مضيئة، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾. الثاني: معناه: مبصرًا بها إن كانت الشمس، أو فيها إن كانت النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مبصرًا فيه، ونظيره قولهم: «ليل نائم ونهار صائم» أي: ينام فيه ويصام فيه.

---

(١) الإسراء: ١٠٩.
(٢) البقرة: ١٣٤.

الثالث: أنه فعل رباعي منقول بالهمزة عن الثلاثي الذي هو: بصر بالشيء، أي: علم به، فهو بصير، أي: عالم، معناه أنه يجعلهم بصراء، فيكون أبصره بمعنى بصره، وعلى هذا حمل الأخفش قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾[1] أي: تبصرهم فتجعلهم بصراء.

الرابع: أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقدرة، وهو متحرك بإرادته امتثال أمر الله تعالى كما يتحرك الإنسان.

وفي قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

فإن قيل: ما الفائدة في ذكر عدد السنين مع أنه لو اقتصر على قوله: لتعلموا الحساب دخل فيه عدد السنين؛ إذ هو من جملة الحساب؟

قلنا: العدد كله موضوع الحساب كبدن الإنسان، فإنه موضوع الطب، وأفعال المكلفين موضوع الفقه، وموضوع كل علم مغاير له وليس جزءًا منه، كبدن الإنسان ليس جزءًا من الطب، ولا أفعال المكلفين جزءًا من الفقه، فكذا العدد ليس جزءًا من الحساب، وإنما ذكر عدد السنين وقدَّمه على الحساب؛ لأن المقصود الأصلي من محو الليل وجعل آية النهار مبصرة علم عدد الشهور والسنين، ثم يتفرع من ذلك علم حساب التاريخ وضرب المدة والآجال.

وفي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[2]؟

قلنا: مواقف القيامة مختلفة، ففي موقف يكل الله حسابهم إلى أنفسهم وعلمه محيط به، وفي موقف يحاسبهم هو.

وقيل: هو الذي يحاسبهم لا غيره، وقوله تعالى: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها عالم بذلك، فهو توبيخ وتقريع لا أنه تفويض لحساب العبد إلى نفسه.

---

(١) النمل: ١٣.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

وقيل: من يريد مناقشته في الحساب يحاسبه بنفسه، ومن يريد مسامحته فيه يكل حسابه إليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥].

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾** يرد ما جاء في الأخبار أن في يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتاب والمديون ويزداد في حسنات رب الدين والشخص الذي اغتيب، فإن لم تكن لهما حسنات يوضع عليهما من سيئات خصميهما، وكذلك جاء هذا في سائر المظالم؟

قلنا: المراد من الآية أنها لا تحمله اختيارًا ردًّا على الكافرين حيث قالوا للذين آمنوا: **﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ...﴾** الآيتين، والمراد من الخبر أنها تحمله كرهًا فلا تنافي، وقد سبق هذا مرة في آخر سورة «الأنعام».

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: **﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾**، وقال في آية أخرى: **﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾**[(١)]؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: أمرناهم بالطاعة ففسقوا. وقال الزجاج: ومثله قولهم: أمرته فعصاني، وأمرته فخالفني، لا يفهم الأمر بالمعصية ولا الأمر بالمخالفة.

الثاني: أن معناه كثرنا مترفيها، يقال: أمرته وآمرته بالمد والقصر يعني: كثرته، وقد قرئ بهما، ومنه الحديث: «**خَيْرُ المَالِ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ**»[(٢)] أي: كثيرة النتاج والنسل.

الثالث: أن معناه أمرنا مترفيها بالتشديد، يقال: أمرت فلانًا بمعنى أمرته، أي: جعلته أميرًا، فمعنى الآية: سلطانهم بالإمارة، ويعضد هذا الوجه قراءة من قرأ «**أَمَّرْنَا**» بالتشديد.

---

(١) الأعراف: ٢٨.

(٢) تفسير القرطبي، (١/ ٢٣٣)- وفتح الباري، (٨/ ٣٩٥).

وقال الزمخشري -رحمه الله: لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؛ لأن حذف ما لا دليل عليه في اللفظ غير جائز فكيف يقدر حذف ما قام الدليل في اللفظ على نقيضه، وذلك لأن قوله: «**فَفَسَقُوا**» يدل على أن المأمور به المحذوف وهو الفسق وهو كلام مستفيض، يقال: أمرته فقام وأمرته فقعد وأمرته فقرأ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به القيام والقعود والقراءة، بخلاف قولهم أمرته فعصاني وأمرته فخالفني، حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة؛ لأن ذلك منافٍ للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر وينافيه مأمورًا به، فيكون المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي، والمتكلم بمثل هذا لا ينوي لأمره مأمورًا به، بل كأنه قال: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، أو كانت منه مخالفة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...**﴾ الآية، يدل على أن من لم يزهد في الدنيا ولم يتركها كان من أهل النار، والأمر بخلافه.

قلنا: المراد من كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لا غير، ومثل هذا لا يكون إلا كافرًا أو منافقًا، ولهذا قال ابن جرير: هذه الآية لمن لا يؤمن بالمعاد، وأما من أراد من الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة فكيف يكون مذمومًا، مع أن الاستغناء عن الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة، فكيف يكون مذمومًا، مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلية وعن جميع ما فيها لا يتصور في حق البشر ولو كانوا أنبياء، فعلم أن المراد ما قلنا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ أي: ممنوعًا، ونحن نرى ونشاهد في الواقع أن واحدًا أعطاه قناطير مقنطرة وآخر منعه العطاء حتى الدانق والحبة؟

قلنا: المراد بالعطاء هنا الرزق، والله تعالى سوى في ضمان الرزق وإيصاله بين البر والفاجر، والمطيع والعاصي، ولم يمنع الرزق عن العاصي بسبب عصيانه، فلا تفاوت بين العباد في أصل الرزق، وإنما التفاوت بينهم في مقادير الإملاك.

فإن قيل: كيف منع الله تعالى الكفار التوفيق والهداية ولم يمنعهم الرزق؟

قلنا: لأنه لو منعهم من الرزق لهلكوا وصار ذلك حجة لهم يوم القيامة، بأن يقولوا: لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا أحياء فآمنا.

الثاني: أنه لو أهلكهم بمنع الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة، فيتعطل معنى الحليم عن معناه؛ لأن الحليم هو الذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه.

الثالث: أن منع الطعام والشراب من صفات البخلاء الأخساء، والله تعالى منزه عن ذلك.

وقيل: إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل، وعدل الله عام، وهبته التوفيق، والهداية فضل، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فإن قيل: ما فائدة قوله: «عِنْدَكَ» في قوله تعالى: **﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا﴾**؟

قلنا: فائدته أنهما يكبران في بيته وكنفه ويكونان كلاًّ عليه لا كافل لهما غيره، وربما تولى منهما من المشاق ما كانا يتوليان منه في حال الطفولية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾**، ولم يقل: ولا تزنوا؟

قلنا: لو قال: ولا تزنوا كان نهيًا عن الزنا لا عن مقدماته كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك، ولما قال: **﴿وَلاَ تَقْرَبُوا﴾** كان نهيًا عنه وعن مقدماته؛ لأن فعل المقدمات قربان للزنا.

وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨].

فإن قيل: الإشارة بقوله تعالى: **﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾** على ماذا تعود؟

قلنا: الإشارة إلى كل ما هو منهي عنه من جميع ما ذكر من قوله تعالى: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ**

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ إلى هذه الآية لا إلى جميع ما ذكر، فإن فيه حسنًا وسيئًا.

وقال أبو علي: هو إشارة إلى قوله: «وَلاَ تَقْفُ» وما بعده لأنه لا حسن فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، فقوله: «وَمَن فِيهِنَّ» يتناول أهل الأرضين كلهم، والمراد به العموم كما هو مقتضى الصيغة بدليل تأكيده بقوله تعالى بعده: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1]، والتسبيح هو التنزيه عن كل ما لا يليق بصفات جلاله وكماله، والكفار يضيفون إليه الزوج والولد والشريك وغير ذلك، فأين تسبيحهم؟

قلنا: الضمير في قوله تعالى: «وَمَن فِيهِنَّ» راجع إلى السموات فقط.

الثاني: أنه راجع إلى السموات والأرض، والمراد بقوله تعالى: «وَمَن فِيهِنَّ» يعني من المؤمنين، فيكون عامًّا أريد به الخاص، وعلى هذا يكون المراد كما تقول: مُرْ زيدًا يطعك، وكما تقول: فلان يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويضر وينفع، فإنك لا تنوي مفعولاً.

فإن قيل: على هذا حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون من الله، فلا يقال: يقدر الفسق محذوفًا ولا مأمورًا به.

قلنا: الفسق المحذوف المقدر مجاز على إترافهم وصب النعم عليهم صبًّا أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصي ووسيلة إلى اتباع الشهوات، فكأنهم أمروا بذلك لما كان السبب في وجوده الإتراف وفتح باب النعم.

فإن قيل: لم لا يكون ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالطاعة والعدل والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالطاعة ففسقوا.

قلنا: لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير لكان المتكلم مريدًا من مخاطبة علم الغيب؛

(١) الإسراء: ٤٤.

لأنه أضمر ما لا دلالة عليه في اللفظ؛ بل أبلغ؛ لأنه أضمر في اللفظ ما يناقضه وينافيه وهو قوله تعالى: «**فَفَسَقُوا**»، فكأنه أظهر شيئًا وادعى إضمار نقيضه، فكان صرف الأمر إلى ما ذكرنا من المجاز هو الوجه، هذا كله كلام الزمخشري، ولا أعلم أحدًا من أئمة التفسير صار إليه غيره، ثم إنه أيد فقال: ونظيره أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده تقول: لو شاء فلان لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان لأحسن، ولو شاء الإساءة إليك لأساء، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت، وتعني ولو شاء الإساءة لأحسن إليك، ولو شاء الإحسان لأساء إليك، وتقول: قد دلت حال من أسدت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان دائمًا ومن أهل الإساءة دائمًا، فيترك الظاهر المنطوق به ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سداد.

فإن قيل: على الوجه الأول: لو كان المضمر المحذوف الأمر بالطاعة لما كان مخصوصًا بالمترفين؛ لأن أمر الله تعالى بالطاعة عام للمترفين وغيرهم.

قلنا: أمر الله بالطاعة وإن كان عامًّا، ولكن لما كان صلاح الأمراء والرؤساء وفسادهم مستلزمًا لصلاح الرعية وفسادها غالبًا خصهم بالذكر، ويؤيد هذا ما جاء في الخبر: «صلاح الوالي صلاح الرعية، وفساد الوالي فساد الرعية».

بالتسبيح المسند إلى «**وَمَن فِيهِنَّ**» التسبيح بلسان المقال.

الثالث: أن المراد به التسبيح بلسان الحال حيث تدل على وجود الصانع وعظيم قدرته ونهاية حكمته، فكأنها تنطق بذلك وتنزهه عمَّا لا يجوز عليه وما لا يليق به من السوء، ويؤيده قوله تعالى بعده: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[1]، والتسبيح العام لجميع الموجودات إنما هو التسبيح بلسان الحال.

فإن قيل: لو كان المراد هو التسبيح بلسان الحال لما قال: ﴿**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾؛ لأن التسبيح بلسان الحال مفقود لنا: أي مفهوم ومعلوم؟

قلنا: الخطاب بقوله تعالى: ﴿**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ للكفار، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال لا يفقهون تسبيح الموجودات على ما ذكرنا من التفسير؛ لأنهم لما

(١) الإسراء: ٤٤.

جعلوا لله شركاء وزوجًا وولدًا دلَّ ذلك على عدم فهمهم التسبيح للموجودات وتنزيهها وعدم إيضاح دلائل الوحدانية لهم؛ لأن الله تعالى طبع على قلوبهم.

فإن قيل: «**وَمَن فِيهِنَّ**» وهم الملائكة والثقلان يسبحون حقيقة والسموات والأرض والجمادات تسبح مجازًا، فكيف جمع بين إرادة الحقيقة والمجاز من لفظ واحد وهو قوله: «**تُسَبِّحُ**»؟

قلنا: التسبيح المجازي بلسان الحال حاصل من الجميع، فيحمل عليه دفعًا لما ذكرتم من المجاز.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ**﴾، والمستعمل الشائع دعاء فاستجاب لأمره أو بأمره، أي: أجاب؟

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله عنهما: المراد بقوله تعالى: «**بِحَمْدِهِ**» بأمره.

وقال سعيد بن جبير ﷺ: إذا دعا الله الخلائق للبعث يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقال غيره: وهم يقولون: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فعلى هذا تكون الباء بمعنى «مع»، كما في قوله تعالى: ﴿**تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

فإن قيل: كيف أجمل ذكر الأنبياء كلهم بقوله: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾، ثم خصَّ داود بالذكر فقال: ﴿**وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا**﴾؟

قلنا: لأنه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأنبياء، وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء في زمن واحد؛ قال الله تعالى: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ**

﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[١]، وقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[٢].

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[٣] إشارة إلى تفضيل محمد ﷺ، وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود -عليه الصلاة والسلام، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ وأمته.

فإن قيل: لم نكَّر (الزبور) هنا وعرَّفه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؟

قلنا: يجوز أن يكون (الزبور) من الأعلام التي تستعمل بالألف واللام وبغيرهما كالعباس والفضل والحسن والحسين ونحوها.

الثاني: أنه نكره هنا؛ لأنه أراد وآتينا داود بعض الزبور وهي الكتب.

الثالث: أنه نكره لأنه أراد به ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمي ذلك زبورًا؛ لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآنًا، فقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ...﴾ الآية، وقال: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، وأراد به سورة «يوسف» عليه السلام، وقال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي: القرآن المتلو في صلاة الفجر.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ مغنٍ عن قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْوِيلاً﴾؛ لأنهم إذا لم يستطيعوا كشف الضر لا يستطيعون تحويله؛ لأن تحويل الضر: نقله من محل وإثباته في محل آخر، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما، وكشف الضر مجرد إزالة، ومن لا يقدر على الإزالة وحدها فكيف يقدر على الإزالة مع الإثبات؟ والمراد بالآية كشف الضر والمرض والقحط ونحوها؟

---

(١) ص: ٢٠.
(٢) ص: ٢٦.
(٣) الإسراء: ٥٥.

قلنا: التحويل له معنيان: أحدهما: ما ذكرتم.

والثاني: التبديل، ومنه قولهم: حولت القميص قباء، والفضة خاتمًا، وأريد بالتبديل هنا الكشف؛ لأن في الكشف المنفي في الآية تبديلاً، فإن المرض متى كشف يبدل بالصحة، والفقر متى كشف يبدل بالغنى، والقحط متى كشف يبدل بالخصب وكذا جميع الأضداء، فأطلق التبديل وأراد به الكشف، إلا أنه لم يرد به كشفه الضر لئلا يلزم التكرار، بل أراد به مطلق الكشف الذي هو الإزالة، يعني فلا يستطيعون كشفًا لضر عنكم ولا كشفًا ما، ولهذا لم يقل: ولا تحويله، وهذا الجواب مما فتح الله عليَّ به من خزائن جوده، ونظيره ما ذكرناه في سورة «النحل» في قوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ**﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾

[الإسراء:٥٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ...**﴾ الآية فيها أسئلة: أولها: أن الله تعالى لا يمنعه عمَّا يريده مانع، فإن أراد إرسال الآيات، فكيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية؟ وإن لم يرد إرسالها كان وجود تكذيبهم وعدمه سواء، وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة.

الثاني: أن الإرسال لا يتعدى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ**﴾[1]؛ فأي حاجة إلى الباء؟

الثالث: أن المراد بالآيات هنا ما اقترحه أهل مكة على رسول الله ﷺ من جعل الصفا ذهبًا، وإزالة جبال مكة ليتمكنوا من الزراعة، وإنزال مكتوب من السماء، ونحو ذلك، وهذه الآيات ما أرسلت إلى الأولين ولا شاهدوها فكيف كذبوا بها؟

الرابع: أن تكذيب الأولين لا يمنع إرسالها إلى الآخرين لجواز ألا يكذب الآخرون.

الخامس: أي مناسبة وارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى:

---

(١) نوح: ١.

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[١]؟

السادس: ما معنى وصف الناقة بالإبصار؟

السابع: أن الظلم يتعدى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾[٢]؛ فأي حاجة إلى الباء، وهلا قال فظلموها يعني العقر والقتل؟

الثامن: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ يدل على الإرسال بها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ يدل على عدم الإرسال بها.

قلنا: الجواب عن الأول أن المنع مجاز عبر به عن ترك الإرسال بالآيات، كأنه تعالى قال: وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون.

وعن الثاني: أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به لا إلى المرسل؛ لأن المرسل محذوف وهو الرسول، وتقديره: وما منعنا أن نرسل الرسل بالآيات، والإرسال يتعدى إلى المرسل نفسه، وإلى المرسل به بالباء، وإلى المرسل إليه بـ«إلى»، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[٣].

وعن الثالث: أن الضمير في قوله تعالى: «بِهَا» عائد إلى جنس الآيات المقترحة لا إلى هذه الآيات المقترحة، كأنه تعالى قال: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة، يريد المائدة والناقة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم.

وعن الرابع: أن سنة الله تعالى في عباده أن من اقترح على الأنبياء آية وأتوه بها، فلم يؤمن عجل الله هلاكه، والله تعالى لم يرد هلاك مشركي مكة؛ لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو لأنه قضى وقدر في سابق علمه بقاء من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة، فلو أرسل بالآيات التي اقترحوها فلم يؤمنوا لأهلكهم، وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم، فلذلك لم يرسلها، فيصير معنى الآية: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون فأهلكوا فربما كذب بها قومك فأهلكوا.

---

(١) الإسراء: ٥٩.
(٢) النساء: ١١٠.
(٣) الأعراف: ١٠٣.

وعن الخامس: أنه تعالى لما أخبر أن الأولين كذبوا بالآيات المقترحة عين منها واحدة وهي ناقة صالح عليه السلام؛ لأن آثار ديارهم المهلكة في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم ووارديهم.

وعن السادس: أن معنى مبصرة دالة، كما يقال: الدليل مرشدوها، وقيل: مبصرًا بها، كما يقال: ليل نائم ونهار صائم، أي: ينام فيه ويصام فيه.

وقيل: معناه مبصرة، يعني أنها تبصر الناس صحة نبوة صالح عليه السلام، ويعضد هذا قراءة من قرأ «**مبصرة**» بفتح الميم والصاد، أي: تبصرة. وقيل: مبصرة صفة لآية محذوفة، تقديره: آية مبصرة، أي: مضيئة بينة.

وعن السابع: أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى الناقة، بل معناه: فظلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها.

وقيل: الظلم هنا الكفر، فمعناه: فكفروا بها؛ فلما ضمن الظلم معنى الكفر عداه تعديته.

وعن الثامن: أن المراد بالآيات ثانيًا العبر والدلالات لا الآيات التي اقترحها أهل مكة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾، وليس في القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار، تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن.

الثاني: أن معناه: المعلون آكلوها وهم الكفرة.

الثالث: أن الملعونة يعني المذمومة كذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما، وهي مذمومة في القرآن بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الأَثِيمِ**﴾[1]، وبقوله تعالى: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾[2].

(١) الدخان: ٤٣.
(٢) الصافات: ٦٥.

الرابع: أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار: معلون، وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها.

الخامس: أن اللعن في اللعنة الطرد والإبعاد، والملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى المبعد، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى، وهو الجنة؛ لأنها في قعر جهنم وهذا الإبعاد والطرد مذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**﴾، وقال ابن الأنباري: سميت ملعونة؛ لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧١].

فإن قيل: كيف خصَّ أصحاب اليمين بقراءة كتبهم بقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ**﴾، ولم خصهم بنفي الظلم عنهم بقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ مع أن أصحاب الشمال يقرءون كتابهم ولا يظلمون أيضًا؟

قلنا: إنما خصَّ أصحاب اليمين بذكر القراءة؛ لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما في كتبهم من الفضائح والقبائح أخذهم من الحياء والخجل والخوف ما يوجب حبسة اللسان وتتعتع الكلام والعجز عن إقامة الحروف، فتكون قراءتهم كلا قراءة، فأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرءون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ**﴾[1]، وأما قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾، فهو عائد إلى كل الناس لا إلى أصحاب اليمين.

الثاني: أنه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة، وإنما خصصهم بذلك؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يظلمون، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿**مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا**﴾.

فإن قيل: كيف قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ**﴾ يعني الآيات ﴿**إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ**﴾ يعني بينات وحججًا واضحات، وفرعون

(١) الحاقة: ١٩.

لم يعلم ذلك؛ لأنه لو علم ذلك لم يقل لموسى عليه السلام: ﴿**إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا**﴾[١] أي: مخدوعًا أو قد سحرت أو ساحرًا مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال، بل كان يؤمن به، وكيف يعلم ذلك وقد طبع الله على قلبه وأضله وحال بينه وبين الهدى والرشاد، ولهذا قرأ عليٌّ -كرَّم الله وجهه: (**لَقَدْ عَلِمْتُ**) بضم التاء، وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى عليه السلام هو الذي علم. واختار الكسائي وثعلب قراءة علي رضي الله عنه ونصراها بأنه لما نسبه إلى أنه مسحور أعلمه بصحة عقله بقوله: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ**﴾؟

قلنا: معناه علمت لو نظرت نظرًا صحيحًا إلى الحجة والبرهان، ولكنك معاند مكابر تخشى فوات دعوى الإلهية لو صدقتني، فكان فرعون ممن أضله الله على علم، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة علي رضي الله عنه ويمينه فاحتج بقوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فإن قيل: كيف قال موسى عليه السلام: ﴿**وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**﴾، وموسى عليه السلام كان عالمًا بذلك لا شك عنده فيه؟

قلنا: قال أكثر المفسرين: الظن هنا بمعنى العلم كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ**﴾[٣]، وإنما أتى بلفظ الظن ليعارض ظن فرعون بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحورًا فأنا أظنك مثبورًا؛ والمثبور الهالك والمصروف عن الخيرات أو الملعون والخاسر.

فإن قيل: كيف كرَّر تعالى الإخبار بالخرور؟

قلنا: كرَّره ليدل على تكرار الفعل منهم.

الثاني: أنه كرَّره لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين وفي حال كونهم باكين.

---

(١) الإسراء: ١٠١.
(٢) النمل: ١٤.
(٣) البقرة: ٤٦.

الثالث: أنه أراد بالخرور الأول الخرور في حالة سماع القرآن وقراءته، وبالخرور الثاني في سائر الحالات وباقيها.

فإن قيل: الحمد إنما يكون على نعمة أنعم الله تعالى بها على العبد، كما في قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾[١]، ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**﴾[٢]، ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾؛ لأن فيها من المنافعَ لنا ما لا يعد ولا يحصى، فأي نعمةَ حصلت لنا من كون الله تعالى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولا ناصر حتى قال: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...**﴾[٣] الآية؟

قلنا: النعمة في ذلك أن الملك إذا كان له ولد وزوج، فإنما ينعم على عبيده بما يفضل عن ولده وزوجه، وإذا لم يكن له ولد وزوج كان جميع إنعامه وإحسانه مصروفًا إلى عبيده، فكان نفي اتخاذ الولد مقتضيًا مزيد الإنعام عليهم، وأما نفي الشريك؛ فلأنه يكون أقدر على الإنعام على عبيده لعدم المزاحم، وأما نفي النصير؛ فلأنه يدل على القوة والاستغناء، وكلاهما يقتضي القدرة على زيادة الإنعام، والله أعلم وأحكم.

***

(١) فاطر: ٣٤.
(٢) الأعراف: ٤٣.
(٣) الإسراء: ١١١.

obeikandl.com

سورة الكهـــــف

وفي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

فإن قيل: قوله تعالى: «**قَيِّمًا**» يعني: مستقيمًا، وقوله: ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**﴾ مغنٍ عن قوله: «**قَيِّمًا**» لأنه متى انتفى العوج ثبتت الاستقامة؛ لأن العوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد به هنا نفي الاختلاف والتناقض في معانيه، وأنه لا يخرج منه شيء عن الصواب والحكمة.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجًا.

قلنا: قال القراء: معنى قوله «**قَيِّمًا**» قائمًا على الكتب السماوية كلها مصدقًا لها شاهدًا بصحتها ناسخًا لبعض شرائعها، فعلى هذا لا تكرار فيه، وعلى القول المشهور يكون الجمع بينهما للتأكيد، سواء قدر قيمًا مقدمًا أو أقر في مرتبته، ونصب بفعل مضمر تقديره: ولكن جعله قيمًا، ولا بدَّ من هذا الإضمار أو من التقديم والتأخير، وإلا يصير المعنى: ولم يجعل له عوجًا مستقيمًا والعوج لا يكون مستقيمًا.

فإن قيل: اتخذ الله تعالى ولدًا محال، فكيف قال: ﴿**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ**﴾، وإنما يستقيم أن يقال: فلان ما له علم بكذا إذا كان ذلك الشيء مما يعلمه غيره أو مما يصح أن يعلم، كقولنا: زيد ما له علم بالعربية أو بالحساب أو بالشعر ونحو ذلك.

قلنا: معناه ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وهذا لأن انتفاء العلم بالشيء تارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، وتارة يكون لاستحالة العلم به لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به؛ وما نحن فيه من هذا القبيل.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف:١٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ وهو عالم بذلك في الأزل؟

قلنا: معناه لنعلم ذلك علم مشاهدة كما علمناه علم غيب.

فإن قيل: كيف قال ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ ولم يقل واحدكم؟

قلنا: لأنه أراد فردًا منهم أيهم كان، ولو قال واحدكم لدل على بعث رئيسهم ومقدمهم، فإن العرب تقول: رأيت أحد القوم، أي: فردًا منهم ولا تقول: رأيت واحد القوم إلا إذا أرادت المقدم المعظم.

وفي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

فإن قيل: كيف جاء تعالى بسين الاستقبال في الفعل الأول دون الآخرين في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ...﴾ الآية؟

قلنا: أراد دخول الفعلين الآخرين في حكم الأول بمقتضى العطف، فاقتصر على ذكر السين في الأول إيجازًا واقتصارًا، كما تقول: زيد قد يخرج ويركب، تريد وقد يركب.

فإن قيل: كيف دخلت (الواو) في الجملة الثالثة دون الأولين وهي قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؟

قلنا: قال بعض المفسرين هي واو الثمانية، وقد ذكرنا مثلها في آخر سورة «التوبة». وقال الزجاج: دخول هذه الواو وخروجها سواء في صفة النكرة، وجاء القرآن بهما. وقال غيره: الواو مرادة في الجملتين الأوليين وإنما حذفت فيهما تخفيفًا، وأتى بها في الجملة الثالثة دلالة على إرادتها فيهما ويرد على هذا القول، أنه لو كان كذلك لكانت مذكورة في الجملة الأولى محذوفة في الجملة الثانية والثالثة، ليدل ذكرها أولاً على حذفها بعد ذلك كما سبق في سين الاستقبال.

وقال الزمخشري وغيره: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الصفة الواقعة حالاً من المعرفة، تقول: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد

وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾[1] وفائدتها توكيد اتصال الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي أذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وأتبع القول الثالث قوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾.

وقال ابن عباس: وقعت الواو لقطع العدد، أي: لم يبق بعدها عدد عاد يلتفت إليه، يثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات.

وقال الثعلبي: هذه واو الحكم والتحقيق، كأن الله تعالى حكى على اختلافهم فتم الكلام عند قوله سبعة، ثم حكى بأن ثامنهم كلبهم باستئنافه الكلام، فحقق ثبوت العدد الأخير؛ لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ من كلام الله تعالى حقيقةً وتقديرًا.

ويرد على هذا أن قوله تعالى بعد هذه الواو: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ يدل على بقاء الإبهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

فإن قيل: كيف قال: ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾، ويلزم من تبديل الآية بالآية الكلمات؛ فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: معنى الأول: لا مغير للقرآن من البشر، وهو جواب لقولهم النبي ﷺ: ائت بقرآن غير هذا أو بدله.

الثاني: أن معناه: لا خلف لمواعيده ولا مغير لحكمه، ومعنى الثاني: النسخ والتبديل من الله تعالى فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إباحة وإطلاق للكفر؟

---

(١) الحجر: ٤.

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله عنهما: معناه: فمن شاء ربكم فليؤمن ومن شاء ربكم فليكفر، يعني لا إيمان ولا كفر إلا بمشيئته.

الثاني: أنه تهديد ووعيد.

الثالث: أن معناه لا تنفعون الله بإيمانكم ولا تضرونه بكفركم، فهو إظهار للغنى، لا إطلاق للكفر.

فإن قيل: لبس الأساور في لدنيا عيب للرجال، ولهذا لا يلبسها من يلبس الذهب والحرير من الرجال، فكيف وعدها الله تعالى المؤمنين في الجنة في قوله تعالى: ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ**﴾؟

قلنا: كانت عادة ملوك الفرس والروم لبس الأساور والتيجان مخصوصين بها دون من عداهم، فلذلك وعدها الله تعالى المؤمنين؛ لأنهم ملوك الآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـذِهِ أَبَدًا**﴾ [الكهف: ٣٥].

فإن قيل: كيف أفرد الله تعالى الجنة بعد التثنية، فقال: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ**﴾؟

قلنا: أفردها ليدل على الحصر، معناه: ودخل ما هو جنته لا جنة له غيرها ولا نصيب له في الجنة التي وعد المتقون، بل ما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد جنة معينة منهما، بل جنس ما كان له.

وفي قوله تعالى: ﴿**لَكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٣٨].

فإن قيل: كيف قال الأخ المؤمن لأخيه: ﴿**لَكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾، وهذا تعريض بأن أخاه مشرك، وليس في كلام أخيه ما يقتضي الشرك بل الكفر، وهو قوله: ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾؟

قلنا: إشراك أخيه الذي عرض له به هو اعتقاده أن زكاة جنته ونماءها بحوله وقوته، ولهذا قال له: ﴿**وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ**﴾[1]، ولهذا قال هو

(١) الكهف: ٣٩.

أيضًا لما أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[١]، فاعترف بالشرك.

فإن قيل: ما فائدة «أَنَا» في قوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾[٢]؟

قلنا: أنا في مثل هذا الموضع تفيد حصر الخبر في المخبر عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ﴾ ونظائره كثيرة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ [الكهف:٤٣].

فإن قيل: ما معنى ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ﴾، وكذلك كل ما أشبهه مما جاء في القرآن العزيز: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[٤]، و﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾[٥]، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٦]، وكيف تحقيق معناه؟

قلنا: «دُونِ» يستعمل في كلام العرب بمعنى «غير» كقولهم لفلان: مال دون هذا، ومن دون هذا، أي: غير هذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ﴾[٧] أي: من غيره، وتستعمل بمعنى «قبل» كقولهم: المدينة دون مكة، أي: قبلها، ومن دونه خرط القتاد. ولا أقوم من مجلسي دون أن تجيء، ولا أفارقك دون أن تعطيني حقي، وما أعلم أنها جاءت في القرآن العزيز بمعنى «قبل» بل بمعنى «غير» فقط؟

وفي قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لله الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].

فإن قيل: كيف قال: ﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لله الْحَقِّ﴾ يعني في يوم الآخرة أو في يوم القيامة؛ والولاية بكسر الواو: السلطان والملك، وبفتح الواو: التولي والنصرة، وكل ذلك

(١) الكهف: ٤٢.
(٢) الكهف: ٣٩.
(٣) طه: ١٢.
(٤) مريم: ٨١.
(٥) العنكبوت: ٤١.
(٦) البقرة: ١٠٧.
(٧) المؤمنون: ٦٣.

لله تعالى في الدنيا والآخرة يعز من يشاء ويذل من يشاء، وينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، ويتولى من يشاء بحراسته وحفظه، فما فائدة تخصيص يوم القيامة؟

قلنا: فائدته أن الدعاوى المجازية كثيرة في الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلها، ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع، وقد سبق نظير هذا السؤال في سورة «الأنعام» في قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾[1].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبة، وغير الله تعالى لا يثيب ليكون الله خيرًا منه ثوابًا؟

قلنا: هذا على الفرض والتقدير معناه: لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيرًا من طاعة غيره.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

فإن: قيل كيف قال الله تعالى: «**وَحَشَرْنَاهُمْ**» بلفظ الماضي وما قبله مضارعان وهو قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً**﴾ أي: لا شيء عليها يسترها كما كان في الدنيا؟

قلنا: للدلالة على أن حشرهم كان قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال والعظائم، كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**﴾، مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر بقوله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾[2]؟

قلنا: الآية الأولى في حق الكافرين بدليل قوله تعالى: ﴿**فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ**﴾، والمراد بهم

(١) الأنعام: ٧٣.
(٢) النساء: ٣١.

هنا الكافرون، وكذا قال مجاهد، وقال غيره: كل مجرم في القرآن فالمراد به الكافر، والآية الثانية المراد بها المؤمنون لا اجتناب الكبائر لا يكون متحققًا مع وجود الكفر.

الثاني: لو ثبت أن المراد بالمجرم مطلق المذنب لم يلزم التناقض، لجواز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فيعلم قدر نعمة العفو فإن أكثر ذنوب العبد ينساها خصوصًا الصغائر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾** يدل على أنه من الجن، وقوله تعالى في موضع آخر: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾** يدل على أنه من الملائكة، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: فيه قولان: أحدهما أنه من الجن حقيقة عملاً بظاهر هذه الآية، ولأن له ذرية قال تعالى: **﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾**[(١)]، والملائكة لا ذرية لهم، ولأنه أكفر الكفرة وأفسق الفسقة، والملائكة معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله وعن المعاصي مطلقًا لأنهم عقول مجردة بغير شهوة، ولا معصية إلا عن شهوة، ويؤيده قوله تعالى: **﴿لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**[(٢)]، وقال تعالى: **﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾** يعني: الملائكة **﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾**[(٣)]، فكيف كان إبليس منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع، فعلى هذا يكون استثناؤه من الملائكة استثناء من غير الجنس، أو يكون استثناء من جنس المأمورين بالسجود لا من جنس الملائكة، ويكون التقدير: وإذ قلنا للملائكة وإبليس اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، كما تقول: أمرت أخوتي وعبدي بكذا فأطاعوني إلا عبدي، والعبد ليس من الإخوة ولا داخلاً فيهم إلا من حيث شمله الأمر بالفعل معهم، فهذا كذلك.

القول الثاني: أنه كان من الملائكة قبل أن يعصي الله تعالى، فلما عصاه مسخه شيطانًا.

---

(١) الكهف: ٥٠.
(٢) التحريم: ٦.
(٣) الأنبياء: ١٩، ٢٠.

روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ لمخالفته، فتكون (كان) بمعنى (صار).

وقيل: معناه: أنه كان من الجن في سابق علم الله تعالى، وهذان القولان يدلان على أنه كان من الملائكة قبل المعصية. وروي عنه أيضًا أنه كان من خزان الجنة، وهم جماعة من الملائكة يسمون الجن، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: من الملائكة الذين هم خزان الجنة ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ بمخالفته فيكون استثناء من الجنس.

وقال الزمخشري في سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ هو استثناء متصل؛ لأنه كان جنيًا واحدًا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورًا بهم، فغلبوا عليه في قوله: «فَسَجَدُوا». قلت: وفي هذا التعليل نظر، ثم قال بعده: ويجوز أن يجعل منقطعًا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾، والأولياء: الأصدقاء والأحباب وهم ضد الأعداء، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصادقهم؟

قلنا: المراد بالموالاة هنا إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصي ويوسوسون في صدورهم وطاعتهم إياهم، فالموالاة مجاز عن هذا لأنه من لوازمها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

فإن قيل: قال تعالى هنا: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾، أي: فلم يجب الأصنام المشركين، فنفى عن الأصنام النطق، وقال تعالى في سورة «النحل»: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1] يعني: فكذبتهم الأصنام فيما قالوا، فأثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف: ٥٢]؟

قلنا: المراد بقوله هنا ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: نادوهم للشفاعة لكم أو

(١) النحل: ٨٦.

لدفع العذاب عنكم، فدعوهم فلم يجبوهم لذلك، فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشفاعة ودفع العذاب عنهم، وفي سورة «النحل» أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم، فلا تناقض بين المنفي والمثبت.

فإن قيل: كيف قال تعالى: «**شُرَكَائِيَ**»، وقال في سورة «النحل»: «**شُرَكَاءَهُمْ**»؟

قلنا: قوله تعالى «**شُرَكَائِيَ**» معناه في زعمكم واعتقادكم، ولهذا قال: ﴿**شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ**﴾، وأخرجه مخرج التهكم بهم، كما قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾[1].

وقوله تعالى: «**شُرَكَاءَهُمْ**» يعني آلهتهم التي جعلوها شركاء، فإضافتها إلى الله تعالى لجعلهم إياها شركاء والإضافة نصح بأدنى ملابسة لفظية أو معنوية، فصحت الإضافتان.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ والناسي إنما كان يوشع وحده بدليل قوله لموسى -عليه الصلاة والسلام- معتذرًا: ﴿**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**﴾ أي: قصة الحوت وخبره ﴿**وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾؟

قلنا: أضيف النسيان إليهما مجازًا، والمراد أحدهما. قال الفراء: نظيره قوله تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾[2]، وإنما يخرج من الملح لا من العذب، وقيل: نسي موسى عليه السلام تفقد الحوت ونسي يوشع أن يخبره خبره، وذلك أنه كان حوتًا مملوحًا في مكتل قد تزوداه، فلما أصابه من ماء عين الحياة رشاش حيي وانسل، وكان قد ذهب لقضاء حاجة فعزم يوشع أن يخبره بما رأى من أمر الحوت، فلما جاء موسى نسي أن يخبره، ونسي موسى تفقد الحوت والسؤال عنه.

فإن قيل: هذا التفسير يدل على أن النسيان من يوشع أو منهما كان بعد حياة الحوت وذهابه في البحر، وظاهر الآية يدل على أن النسيان كان سابقًا على ذهابه في البحر متصلاً

(١) الحجر: ٦.
(٢) الرحمن: ٢٢.

ببلوغ مجمع البحرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

قلنا: في الآية تقديم وتأخير تقديره: فلما بلغا مجمع بينهما اتخذ الحوت سبيله في البحر سربًا فنسيا حوتهما.

فإن قيل: كيف نسي يوشع مثل هذه الأعجوبة العظيمة في مدة يسيرة بل في لحظة، واستمر به النسيان يومه ذلك وليلته إلى وقت الغداء من اليوم الثاني، ومثل ذلك لا ينسى مع تطاول الزمان كيف وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة لهما على وجدان الخضر عليه السلام، على ما نقل أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه، فأوحى إليه أن خذ معك حوتًا في مكتل فحيثما فقد الحوت فهو ثم؟

قلنا: سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى عليه السلام واستأنس بها فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات سببًا لقلة اهتمامه بتلك الأعجوبة وعدم اكتراثه لها.

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بغير فاء، و﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ بالفاء؟

قلنا: جعل خرقها جزاءً للشرط فلم يحتج إلى الفاء؛ كقولك: إذا ركب زيد الفرس عقره، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء والجزاء قال أقتلت، كقولك: إذا ركب زيد الفرس فعقره، قال له صاحبه: أعقرته؟

فإن قيل: كيف خولف بين القصتين؟

قلنا: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقتل الغلام تعقب لقاءه.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى في قصة الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نكْرًا﴾، وفي قصة السفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾؟

قلنا: قيل: إمرًا معناه: نكرًا، فعلى هذا لا فرق في المعنى؛ لأن الأمر والنكر بمعنى واحد. وقيل: الإمر العجب أو الداهية، وخرق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة؛

لأن في الأول هلاك كثيرين. وقيل: النكر أعظم من الإمر فمعناه: جئت شيئًا أنكر من الأول؛ لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسد، وهذا لا يمكن تداركه.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة السفينة: **﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾** وفي قصة الغلام: **﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾**؟

قلنا: لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصية مرة ثانية والتنبيه على تكرر ترك الصبر والثبات.

فإن قيل: ما فائدة إعادة ذكر الأهل في قوله: **﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾**، وهلا قال استطعماهم؛ لأنه قد سبق ذكر الأهل مرة؟

قلنا: فائدة إعادته التأكيد لا غير.

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ﴾** نسب الإرادة إلى الجماد وهي من صفات من يعقل؟

قلنا: هذا مجاز بطريق المشاهدة؛ لأن الجدار بعد مشارفته ومداناته للانقضاض والسقوط شابه من يعقل، ويريد في تهيئة للسقوط فظهر منه هيئة السقوط كما تظهر ممن يعقل ويريد، فنسبت إليه الإرادة مجازًا بطريق المشابهة في الصورة، وقد أضافت العرب أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل مجازًا، قال الشاعر:

يُرِيدُ الرمح صدر أبي براء ... ويعدلُ عن دماء بني عقيل

وقال حسان:

إِنَّ دَهرًا يَلُفُّ شَملي بِجُملٍ ... لَزَمانٌ يَهُمُّ بِالإِحسانِ[1]

وفي قوله تعالى: **﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾** [الأعراف: ١٥٤].

(١) ديوان حسان بن ثابت، وهي قصيدة من بيت واحد هو هذا البيت.

ومن أمثالهم: «تمرَّد مارِدٌ وعزَّ الأبلقُ»، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ**﴾، وقوله: ﴿**فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ**﴾[١]، وقوله: ﴿**قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[٢]، ونظائره كثيرة.

فإن قيل: لأي سبب لم يفارقه الخضر عليه السلام عند الاعتراض الأول والثاني، وفارقه عند الثالث؟

قلنا لوجهين: أحدهما أن موسى عليه السلام شرط على الخضر ترك مصاحبته على تقدير وجود الاعتراض الثالث وقد وجد، فكان راضيًا به.

الثاني: أن اعتراض موسى عليه السلام في المرة الأولى والثانية كان تورعًا وصلابة في الدين، واعتراضه في المرة الثالثة لهوى نفسه[٣] وشهوة بطنه فأعقبه هواه هوانًا.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

فإن قيل: قوله: ﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾ علته خوف الغضب، فكان حقه أن يتأخر عن علته، فلم قدم عليها؟

قلنا: هو متأخر عنه؛ لأن علة تعييبها أو علة إرادة تعييبها خوف الغضب وخوف الغضب سابق؛ لأنه الحامل للخضر عليه السلام على ما فعله. وفي قراءة أُبي وعبد الله -رضي الله عنهما: «كل سفينة صالحة»، ولا بدَّ من إضمار هذه الزيادة على قراءة الجمهور، وإلا لم يفد الخرق.

فإن قيل: الشمس في السماء الرابعة وهي بقدر كرة الأرض مائة وستين مرة، وقيل: مائة وخمسين، وقيل: مائة وعشرين، فكيف تسعها عين في الأرض حتى أخبر الله تعالى عن ذي القرنين أنه وجدها تغرب في عين حمئة أو حامئة على اختلاف القراءتين؟

قلنا: المراد بقوله تعالى وجدها أي: في زعمه وظنه، كما يرى راكب البحر إذا لجج فيه وغابت عنه الأطراف والسواحل أن الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه، فذو القرنين

---

(١) محمد: ٢١.

(٢) فصلت: ١١.

(٣) الأنبياء معصومون عن الخطأ، ولا يجوز في حقهم القول باتباع الهوى.

انتهى إلى آخر البنيان في جهة المغرب فوجد عينًا حمئة واسعة عظيمة فظن أن الشمس تغرب فيها.

فإن قيل: ذو القرنين كان نبيًّا أو تقيًّا حكيمًا على اختلاف القولين، فكيف خفي عليه هذا حتى وقع في الظن المستحيل الذي لا يقبله العقل؟

قلنا: الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصومين عن ظن الغلط الخطأ، وإن كانوا معصومين عن الكبائر. ألا ترى إلى ظن موسى عليه السلام فيما أنكره على الخضر عليه السلام في القضايا الثلاث، وظنه أنه يرى الله تعالى في الدنيا وهو من كبار الأنبياء، وكذلك يونس عليه السلام على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾[1]، وكان الواقع بخلاف ظنه.

الثاني: أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس، فلم لا يجوز أن يكون قد وقع ذلك ولم نعلم به لقصور علمنا عن الإحاطة بذلك؟

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾ يدل على أنه كان نبيًّا؛ لأن الله تعالى خاطبه.

قلنا: من قال إنه ليس نبيًّا يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبي الموجود في زمانه كما في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ وما أشبه.

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى هنا في حق الكفار: ﴿**فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾ أي: فلا ننصب لهم ميزانًا؛ لأن الميزان إنما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات،

(١) الأنبياء: ٨٧.

والكافر لا حسنة له ولا طاعة لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[1]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[2]، أي: فمسكنه النار فأثبت له ميزانًا؟

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾، أي: لا يكون لهم عندنا قدر ولا خطر لخستهم وحقارتهم، ولو كان معناه ما ذكرتم يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين؛ فإنه يستكين في النار، ولكن لا يخلد فيها، بل بقدر ما يمحص عنه ذنوبه، فلا تنافي بينهما.

***

(١) الفرقان: ٢٣.
(٢) القارعة: ٩.

obeikandl.com

سورة مريـــــم

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

فإن قيل: النداء الصوت والصياح، يقال: ناداه نداء، أي: صاح به، فكيف وصفه تعالى بكونه خفيًّا؟

قلنا: النداء هنا عبارة عن الدعاء، وإنما أخفاه ليكون أقرب إلى الإخلاص، أو لئلا يلام على طلبه الولد بعد الشيخوخة، أو لئلا يعاديه بنو عمه ويقولوا: كره أن نقوم مقامه بعده، فسأل ربه الولد لذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].

فإن قيل: كيف قال: **﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾**، والنبي لا يورث لقوله ﷺ: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة»**[(١)]؟

قلنا: المراد بقوله يرثني أي: يرثني العلم والنبوة، ويرث من آل يعقوب الملك، وقيل: الأخلاق، فأجابه الله تعالى إلى وراثته العلم والنبوة والأخلاق دون الملك، والمراد بقوله ﷺ: **«لا نورث»** المال، ويؤيده قوله: **﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾**، ويعقوب هنا أبو يوسف عليهما السلام، وقيل: لا، بل هو أخو زكريا، وقيل: لا، بل هو أخو عمران الذي هو أبو مريم.

فإن قيل: كيف قال: **﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾**، فعدى الفعل في الأول بنفسه، والثاني بحرف الجر وهو واحد؟

قلنا: يقال ورثة وورث منه، فجمع بين اللغتين. وقيل: «**مِنْ**» هنا للتبعيض لا للتعدية؛ لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء.

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، (١٢/ ٨).

وفي قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥].

فإن قيل: كيف طلب الولد بقوله: **﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا﴾** أي: ولدًا صالحًا، فلما بشره الله تعالى بقوله: **﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ...﴾**[1] الآية استبعد ذلك وتعجب منه وأنكره بقوله: **﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ...﴾** الآية؟

قلنا: لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد، بل ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد وهو قوله تعالى: **﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾**، فيزداد الموقنون إيقانًا ويرتدع المبطلون، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخرًا كان على منهاج واحد، في أن الله تعالى غني عن الأسباب.

الثاني: أنه قال ذلك تعجب فرح وسرور، لا تعجب إنكار واستبعاد.

الثالث: قيل: إنه قال ذلك استفهامًا عن الحالة التي يهبه الله تعالى فيها الولد، هل يهبه في حالة الشيخوخة أم يرده إلى حالة الشباب؛ ثم يهبه، ولكن هذا الجواب لا يناسبه ما أجيب به زكريا عليه السلام بعد استفهامه.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً﴾ [مريم: ١٠].

فإن قيل: كيف قال: **﴿رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً﴾**، والآية العلامة فطلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله تعالى به، أكان عنده شك بعد بشارة الله تعالى في وجوده حتى طلب العلامة؟

قلنا: إنما طلب العلامة على وجود الحمل ليبادر إلى الشكر ويتعجل السرور، فإن الحمل لا يظهر في أول العلوق بل بعد مدة، فأراد معرفته أول ما يوجد، فجعل الله آية وجود الحمل عجزه عن الكلام وهو سوى الجوارح، ما به خرس ولا بكم.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٨].

فإن قيل: كيف قالت مريم: **﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾**، وإنما يتعوذ من الفاسق لا من التقي؟

---

(١) مريم: ٧.

قلنا: معناه إن كنت ممن يتقي الله ويخشاه فانته عني بتعوذي به منك، فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوذ. وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه كان في زمانها رجل اسمه تقي، ولم يكن تقيًا بل كان فاجرًا، فظنته إياه فتعوذت منه.

والقول الأول هو الذي عليه المحققون. وقيل: هو المبالغة، معناه: إني أعوذ منك إن كنت تقيًّا فكيف يكون حالي في القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن تقيًا؟ قالوا: ونظير هذا ما جاء في الخبر: «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه» معناه: أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عصيان، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى. وفي قراءة أبي رجاء وابن مسعود: «إلا أن تكون تقيًا».

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

فإن قيل: اتفق العلماء على أن الوحي لم ينزل على امرأة ولم يرسل جبريل عليه السلام برسالة إلى امرأة قط، ولهذا قالوا في قوله تعالى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾** أنه كان وحي إلهام، وقيل: وحي منام، فكيف قال تعالى: **﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾**، و**﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾**؟

قلنا: لا نسلم أن الوحي لم ينزل على امرأة قط، فإن مقاتلاً قال في قوله تعالى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾**[1]: أنه كان وحيًا بواسطة جبريل عليه السلام، وإنما المتفق عليه بين العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بوحي الرسالة على امرأة لا بمطلق الوحي، وهنا لم ينزل على مريم بوحي الرسالة بل بالبشارة بالولد، لهذا جاء على صورة البشر **﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾**.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

فإن قيل: ما وجه قراءة الجمهور **﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾** والواهب للولد هو الله تعالى لا جبريل عليه السلام؟ قلنا: قال ابن الأنباري: معناه أنا رسول ربك بقوله لك أرسلت رسولي إليك لأهب لك، فيكون حكاية عن الله تعالى لا عن قول جبريل عليه السلام، فيكون فعل الهبة مسندًا إلى الله تعالى لا إليه.

---

(١) القصص: ٧.

الثاني: أن معناه لأكون سببًا في هبة الولد بواسطة النفخ في الدرع، فالإضافة إليه بواسطة السببية.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

فإن قيل: كيف قالت: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، ولم تقل بغية مع أنه وصف مؤنث؟

قلنا: قال ابن الأنباري: لما كان هذا الوصف غالبًا على النساء، وقلما تقول العرب: رجل بغي، لم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء له مجرى حائض وعاقر.

وقال الأزهري: لا يقال رجل بغي، بل هو مختص بالمؤنث، ولام الكلم ياء يقال بغت تبغي، وهي فعول عند المبرد أصلها: بغوي، قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين إتباعًا، فهو كصبور وشكور في عدم دخول التاء، وقال ابن جني في التمام: هي فعيل، ولو كان فعولاً لقيل بغو، كما قيل هو نهو عن المنكر، ثم قيل: هي فعيل بمعنى فاعل، فهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقال الأخفش: هي مثل ملحفة جديد فجعلها بمعنى مفعول. وقيل: إنما لم يقل بغية مراعاة لبقية رءوس الآيات.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

فإن قيل: ما كان حزن مريم وقولها: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ ألفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب؟ أم كان لخوف أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة؟

قلنا: كان حزنها لمجموع الأمرين، وهو ما ذكرتم، وجدب مكانها الذي ولدت فيه، فإنه لم يكن فيه طعام ولا شراب، ولا ماء تتطهر به، وكان إجراء النهر في المكان اليابس لم يعهد فيه ماء، وإخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتي الحزن، أما دفع الجدب فظاهر، وأما دفع حزن التهمة، فمن حيث إنهما معجزتان تدلان قومها على عصمتها وبراءتها من السوء وأن الله تعالى قد خصها بأمور إلهية خارجة عن العادة خارقة لها، فتبيَّن لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها ولا بعيد في قدرة الله تعالى، المخرج في لحظة واحدة الرطب الجني من النخلة اليابسة، والمجري للماء بغتة في مكان لم يعهد فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

فإن قيل: كيف أمرها جبريل عليه السلام إذا رأت إنسانًا أن تكلمه بعد النذر بالسكوت بقوله: **﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾** الآية، وذلك خلف في النذر؟

قلنا: إنما أمرها بذلك لأنه تمام نذرها، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يندرج فيه الكف عن الذكر والتسبيح والدعاء ونحوها، بل ينذر السكوت عن تكليم الإنس، وإذا كان تمام نذرها بقولها: **﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾** لا تكون مكلمة لإنسي بعد تمام النذر.

وفي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾**، وكل أحد كان في المهد صبيًّا؟

قلنا: كان هنا زائدة، وصبيًّا منصوب على الحال لا على أنه خبر «**كَانَ**» تقديره: كيف نكلم من في المهد في حال صباه، وقيل: كان بمعنى وقع ووجد، وصبيًّا منصوب على الوجه الذي مر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

فإن قيل: خطاب التكليف في جميع الشرائع إنما يكون بعد البلوغ أو بعد التمييز والقدرة على فعل المأمور به، وعيسى عليه السلام كان رضيعًا في المهد فكيف خوطب بالصلاة والزكاة حتى قال: **﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾**؟

قلنا: تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها إنما كان ليحصل العقل والتمييز، وعيسى عليه السلام كان واجد العقل والتمييز التام في تلك الحالة فتوجه نحوه الخطاب أن يفعلها إذا قدر على ذلك، ولهذا قيل: إنه أعطي النبوة في صباه أيضًا.

فإن قيل: الزكاة إنما تجب على الأغنياء، وعيسى عليه السلام لم يزل فقيرًا لابس كساء مدة مقامه في الأرض، وعلم الله تعالى ذلك من حاله، فكيف أوصاه بالزكاة؟

قلنا: المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصي، لا زكاة المال.

فإن قيل: كيف جاء السلام في قصة يحيى عليه السلام منكرًا، وفي قصة عيسى عليه السلام معرفًا؟

قلنا: قد قيل إن النكرة والمعرفة في مثل هذا سواء لا فرق بينهما في المعنى.

الثاني: أنه سبق ذكره في قصة يحيى عليه السلام مرة فلما أعيد ذكره أعيد معرفًا كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۞ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ كأنه قال ذلك السلام الموجه إلى يحيى عليه السلام في المواطن الثلاثة موجه إليَّ.

فإن قيل: كيف تكون الألف واللام في السلام للعهد، والأول سلام من الله تعالى على يحيى عليه السلام، والثاني سلام من عيسى على نفسه؟

قلنا: التعريف راجع إلى ماهية السلام ومواطنه، لا إلى كونه واردًا من عند الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وما أشبهه، ومثل هذا إنما يستعمل إذا كان المأمور مختارًا في الذكر وعدمه، كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتابًا: اذكرني في الكتاب، أو اذكر فلانًا في الكتاب، والنبي عليه السلام ما كان على سبيل من الزيادة والنقصان في الكتابة ليوصي بمثل ذلك؟

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧].

قلنا: هذا على طريق التأكيد في الأمر بالإبلاغ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ.

فإن قيل: الاستغفار للكافر لا يجوز، فكيف وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ مع أنه كافر؟

قلنا: معناه: سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها مغفرته، يعني الإسلام والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز، وهو أن يقال: اللهم وفقه للإسلام أو اللهم تب عليه واهده وأرشده وما أشبه ذلك.

الثاني: أنه وعده ذلك بناء على أنه يسلم فيستغفر له بعد الإسلام.

الثالث: أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر، فإن تحريم ذلك قضية شرعية

إنما تعرف بالسمع لا عقلية، فإن العقل لا يمنع ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

فإن قيل: الطور وهو الجبل ليس له يمين ولا شمال، فكيف قال تعالى: **﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾**؟

قلنا: خاطب الله تعالى العرب بما هو معروف في استعمالهم، فإنهم يقولون: عن يمين القبلة وشمالها، يعنون ما يلي يمين المستقبل لها وشماله؛ لأن القبلة لا بدَّ لها لتكون لها يمين وشمال، وهذا اتساع منهم في الكلام لعدم اللبس، فالمراد بالأيمن هنا ما عن يمين موسى عليه السلام من الطور؛ لأن النداء جاءه من قبل يمينه، هذا إن كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين، وإن كان من اليمين وهو البركة من قولهم: يمن فلان قومه فهو يامن، أي: كان مباركًا عليهم، فلا إشكال؛ لأنه يصير معناه: من جانب الطور المبارك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾** وهارون كان أكبر من موسى -عليهما السلام، فما معنى هبته له؟

قلنا: معناه أن الله تعالى أنعم على موسى -عليه الصلاة والسلام- بإجابة دعوته فيه؛ حيث قال: **﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي﴾**[1] الآية فقال: **﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾**[2]، فالمراد بالهبة أنه جعله عضدًا له وناصرًا ومعينًا، كذا فسره ابن عباس -رضي الله عنهما.

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨].

فإن قيل: كيف وصف الله تعالى النبيين المذكورين في قوله: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ...﴾** الآية بقوله تعالى: **﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾**، والمراد بآيات الرحمن القرآن، والقرآن لم يتل على أحد من الأنبياء

(١) طه: ٢٩.
(٢) القصص: ٣٥.

المذكورين؟

قلنا: آيات الرحمن غير مخصوصة بالقرآن، بل كل كتاب أنزله الله تعالى ففيه آياته، ولو سلمنا أن المراد بها القرآن فنقول: إن المراد بقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ محمد ﷺ وأمته.

وفي قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۞ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ يدل على أن ترك الصلاة وإضاعتها كفر؛ لأنه شرط في توبة مضيعها الإيمان.

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله عنهما: المراد بهؤلاء الخلف هنا اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، ولم يقل آتيًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآَتٍ﴾؟

قلنا: المراد بوعده موعده وهو الجنة، وهي مأتية يأتيها أولياؤه.

الثاني: أنه مفعولاً هنا بمعنى فاعل، كما في قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: ساترًا.

وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] يدل من حيث المفهوم أن غير المتقين لا يدخلون الجنة؟

قلنا: المراد بالتقوى هنا التقوى من الشرك، وكل المؤمنين سواء في ذلك.

فإن قيل: ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال من دعوتهم الولد لله تعالى، ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

قلنا: معناه أن الله تعالى يقول: كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبًا على قائلها، لولا حلمي وإمهالي، وأن لا أعجل العقوبة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ**﴾[1] يعني: أن تخر على المشركين وتنشق الأرض بهم، ويدل على هذا قوله تعالى في آخر آية: ﴿**إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾.

الثاني: أن يكون استعظامًا لقبح هذه الكلمة وتصويرًا لأثرها في الدين وهدمًا لأركانه وقواعده.

وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن يصيب هذه الأجسام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر.

وفي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾

[مريم: ٩٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا في صفة الشرك: ﴿**تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**﴾، وهذا يدل على قوة كلمة الشرك وشدتها، وقال تعالى في سورة «إبراهيم» صلوات الله عليه في صفة كلمة الشرك: ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾[2]، والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك، كذا قاله ابن عباس -رضي الله عنهما، وبالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل، كذا قاله رسول الله ﷺ، وهذا يدل على ضعف كلمة الشرك وتلاشيها واضمحلالها، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: وصفت كلمة الشرك في سورة «إبراهيم» عليه السلام بالضعف وهنا بالقبح، فهي في غاية الضعف وفي غاية القبح والفظاعة فلا تنافي بينهما.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا**﴾، والإحصاء العد على ما نقله الجوهري، أو الحصر على ما نقله بعض أئمة التفسير، كما سبق ذكره في سورة «إبراهيم» صلوات الله عليه في قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾، فإن كان

(١) فاطر: ٤١.

(٢) إبراهيم: ٢٦.

الإحصاء العد فهو تكرار، وإن كان الحصر فذكره مغنٍ عن ذكر العد؛ لأن الحصر لا يكون إلا بعد معرفة العدد؟

قلنا: الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾ أي: علم عدد كل شيء، قال الشاعر:

وكن للذي لم تحصه متعلمًا وأما الذي أحصيت منه فعلِّم

وهو المراد هنا، فيصير المعنى لقد علمهم، أي: علم أفعالهم وأقوالهم وكل ما يتعلق بذواتهم وصفاتهم وعددهم، فلا تكرار ولا استغناء عن ذكر العد.

***

obeikandl.com

سورة طـــــــه

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ رَأَى نَارًا...﴾ الآية كيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لأهله عند رؤية النار في هذه السورة وفي سورة «النمل» وفي سورة «القصص» بعبارات مختلفة، وهذه القضية لم تقع إلا مرة واحدة، فكيف اختلفت عبارة موسى عليه السلام فيها؟

قلنا: قد سبق في سورة «الأعراف» في قصة موسى عليه السلام مثل هذا السؤال والجواب المذكور ثم هو الجواب هنا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه:١٦].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا﴾ ظاهر اللفظ نهي مَنْ لا يؤمن بالساعة عن صد موسى عن الإيمان بها، والمقصود هو نهي موسى عن التكذيب بها، فكيف تنزيله.

قلنا: معناه كُنْ شديد الشكيمة في الدين صليب المعجم؛ لئلا يطمع في صدك عن الإيمان بها من لا يؤمن بها، وهذا كقولهم: لا أرينك هاهنا؛ معناه: لا تدن مني ولا تقرب من حضرتي لئلا أراك؛ ففي الصورتين النهي متوجه إلى المسبب، والمراد به النهي عن السبب، وهو القرب منه والجلوس بحضرته، فإنه سبب رؤيته، وكذلك لين موسى عليه السلام في الدين وسلاسة قياده سبب لصدهم إياه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧].

فإن قيل: ما فائدة السؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾، وهو أعلم بما في يده جملةً وتفصيلاً؟

قلنا: فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلم معه، كما يرى أحدنا طفلاً قد داخلته هيبة وإجلال وخوف وفي يده فاكهة أو غيرها فيلاطفه ويؤانسه بقوله ما هذا الذي في يدك؟ مع أنه عالم به.

الثاني: أنه أراد بذلك أن يقر موسى عليه السلام ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بكونها عصا رسوخًا في قلبه، فلا يحوم حوله شك إذا قلبها ثعبانًا أنها كانت عصا ثم انقلبت ثعبانًا بقدرة الله تعالى، وأن يقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب والمقلوب إليه فيتنبه على القدرة الباهرة، ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك: ما هذه؟ فتقول: هذه زبرة من حديد، ثم يريك بعد أيام درعًا سابغة مسرودة ويقول: هذه تلك الزبرة، صيرتها إلى ما تراه من عجيب الصنعة وأنيق السرد.

فإن قيل: كيف زاد موسى على حرف الجواب وليس ذلك من شيمة البلغاء خصوصًا في مخاطبة الملك الأعلى؟

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله عنهما: إنه لما قال: عصاي سئل سؤالاً ثانيًا، فقيل: ما تصنع بها؟ فأجاب بباقي الآية.

الثاني: أنه إنما عدَّد فوائدها وبيَّن حاجته إليها خوفًا من أن يؤمر بإلقائها كما أمر بإلقاء النعلين.

الثالث: أنه ذكر ذلك لئلا ينسب إلى العبث في حملها.

فإن قيل: قد نقل أنها كانت تضيء له بالليل وتدفع عنه الهوام، وتثمر له إذا اشتهى الثمار، فيغرسها في الأرض فتثمر في ساعتها، ويركزها فينبع الماء من مركزها، فإذا رفعها نضب، وكان يستقي بها فتطول بطول البئر وتقصر بقصرها، فهلا عدَّد هذه المنافع؟

قلنا: كره أن يشتغل عن سماع كلام الله تعالى بتفصيل منافعها، ففصَّل البعض وأجمل الباقي بقوله: ﴿**وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾، والله أعلم بما أجمله.

الثاني: أنه ذكر المنافع التي هي ألزم له وحاجته إليها أمس، وإن كانت المنافع التي أجملها أعجب وأغرب.

فإن قيل: قد ذكر الله تعالى عصا موسى عليه السلام بلفظ الحية والثعبان والجان، وبين

الثعبان والجان تنافٍ؛ لأن الجان الحية الصغيرة كذا قاله ابن عرفة، والثعبان الحية العظيمة، كذا نقله الأزهري عن الزجاج وقطرب.

قلنا: أراد أنها في صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها ويؤيده قوله: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾[1].

الثاني: أنها كانت في أول انقلابها تنقلب حية صغيرة دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانًا، فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه: ٣٨].

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾، وهذا لا بيان فيه؛ لأنه مجمل فما فائدته؟

قلنا: فائدته الإشارة إلى أنه ليس كل الأمور مما يوحى إلى النساء كالنبوة ونحوها، بل بعضها.

الثاني: أنه للتأكيد كقوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾[2]، كأنه قال: إذ أوحينا إلى أمك إيحاء.

الثالث: أنه أبهمه أولاً للتفخيم والتعظيم، ثم بيَّنه وأوضحه بقوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ...﴾ الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه:٧٠].

فإن قيل: كيف قدَّم هارون على موسى -عليهما السلام- في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، وهارون كان وزيرًا لموسى -عليهما السلام- وتبعًا له، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾[3]؟

قلنا: إنما قدَّمه ليقع موسى مؤخرًا في اللفظ، فيناسب الفواصل: أعني رءوس الآيات.

---

(١) النمل: ١٠.
(٢) النجم: ٥٤.
(٣) الفرقان: ٣٥.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا﴾، والموت والحياة صفتان من صفات الإنسان وهما نقيضان، فكيف يرتفعان؟

قلنا: المراد لا يموت فيها موتًا يستريح به، ولا يحيا حياة تنفعه ويستلذ بها.

الثاني: أن المراد لا يموت فيها موتا متصلاً ولا يحيا حياة متصلة، بل كلما مات من شدة العذاب أعيد حيًّا ليذوق العذاب هكذا سبعين مرة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

فإن قيل: الخوف والخشية واحد في اللغة، فكيف قال تعالى: ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى﴾؟

قلنا: معناه لا تخاف دركًا، أي: لحاقًا من فرعون ولا تخشى غرقًا في البحر كما تقول: لا تخاف زيدًا ولا تخشى عمرًا، ولو قلت: ولا عمرًا صح وكان أوجز، ولكن إذا أعدت الفعل كان آكد، وأما في الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكورًا ذكر الفعل ثانيًا ليكون دليلاً عليه، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة، وقيل: معناه لا تخاف دركًا على نفسك، ولا تخشى دركًا على قومك، والأول عندي أرجح.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ يعني عن قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَى﴾، ويفيد فوق فائدته فكيف ذكر معه؟

قلنا: معناه: وما هداهم بعدما أضلهم، فإن المضل قد يهدي بعد إضلاله.

الثاني: أن معناه: وأضل قومه وما هدى نفسه.

الثالث: أن معناه: وأضل فرعون قومه عن الدين وما هداهم طريقًا في البحر.

الرابع: أن قوله: ﴿وَمَا هَدَى﴾ تهكم به في قوله لقومه: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1].

(١) غافر: ٢٩.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ**﴾[1] أضاف المواعدة إليهم، والمواعدة إنما كانت لموسى عليه السلام وواعده الله تعالى جانب الطور الأيمن لإتيانه التوراة؟

قلنا: المواعدة وإن كانت لموسى عليه السلام، ولكنها لما كانت لإنزال الكتاب بسبب بني إسرائيل وفيه بيان شريعتهم وأحكامهم وصلاح معاشهم ومعادهم أضيفت إليهم المواعدة بهذه الملابسة والاتصال.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾ [طه: ٨٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾ سؤال عن سبب العجلة، فإن موسى عليه السلام لما واعده الله تعالى بإنزال التوراة عليه بجانب الطور الأيمن وأراد الخروج إلى ميعاد ربه اختار من قومه سبعين رجلاً يصحبونه إلى ذلك المكان، ثم سبقهم شوقًا إلى ربه وأمرهم بلحاقه، فعوتب على ذلك وكان الجواب المطابق أن يقول: طلبت زيادة رضاك أو الشوك إلى لقائك وتنجيز وعدك، فكيف قدم ما لا يطابق السؤال وهو قوله: ﴿**هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي**﴾؟

قلنا: ما واجهه ربه به تضمن شيئين: إنكار العجلة في نفسها والسؤال عن سببها، فبدأ موسى عليه السلام بالاعتذار عما أنكره تعالى عليه بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير لا يعتد به في العادة، كما يتقدم المقدم جماعته وأتباعه، ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿**لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا**﴾ [طه: ١٠٧].

فإن قيل: أليس أن أئمة اللغة قالوا: العوج بالكسر في المعاني، وبالفتح في الأعيان، ولهذا قال ثعلب: وتقول في الأمر والدين عوج وفي العصا ونحوها عوج، كالجبال والأرض، فكيف صح فيها المكسور في قوله تعالى: ﴿**لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا**﴾؟

قلنا: قال ابن السكيت: كل ما كان مما ينتصب كالحائط والعود قيل: فيه عوج بالفتح،

(١) طه: ٨٠.
(٢) طه: ٨٤.

والعوج بالكسر ما كان في أرض أو دين أو معاش، فعلى هذا لا إشكال.

الثاني: أنه أراد به نفي الاعوجاج الذي يدرك بالقياس الهندسي ولا يدرك بحاسة البصر، وذلك اعوجاج لاحق بالمعاني، فلذلك قال فيه عوج بالكسر، ومما يوضح هذا أنك لو سويت قطعة أرض غاية التسوية بمقتضى نظر العين بموافقة جماعة من البصراء، واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط، ثم أمرت المهندس أن يعتبرها بالمقاييس الهندسية وجد فيها عوجا في غير موضع، ولكنه عوج لا يدرك بحاسبة البصر، فنفي الله تعالى ذلك العوج لما لطف ودق عن الإدراك، فكان لدقته وخفائه ملحقًا بالمعاني.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ [طه:١١٥].

فإن قيل: إن الله تعالى أخبر أن آدم عليه السلام نسي عهد الله ووصيته وأكل من الشجرة بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ**﴾، وإذا كان فعل ذلك ناسيًا فكيف وصفه بالعصيان والغواية بقوله تعالى: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾ فعاقبه عليه بأعظم أنواع العقوبة، وهو الإخراج من الجنة؟

قلنا: النسيان هنا بمعنى الترك كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَسِينَاكُمْ**﴾[1] أي: تركناكم في العذاب، وقوله تعالى: ﴿**نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾[2]، فمعناه أنه ترك عهد الله ووصيته.. فكيف يكون من النسيان الذي هو ضد الذكر، وقد جرى بينه وبين إبليس من المجادلة والمناظرة في أكل الشجرة فصول كثيرة، منها قوله: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ...**﴾[3] الآية، فكيف يبقى مع هذا نسيان؟

وفي قوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ [طه: ١١٧].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿**فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾، ولم يقل فتشقيا، والخطاب لآدم وحواء -عليهما السلام؟

---

(١) السجدة: ١٤.

(٢) التوبة: ٦٧.

(٣) الأعراف: ٢٠.

قلنا: لوجوه: أحدها: أن الرجل قيم أهله وأميرهم، فشقاؤه يتضمن شقاءهم كما أن معاداته تتضمن معاداتهم، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمنا له.

الثاني: أنه إنما أسنده إليه دونها للمحافظة على الفاصلة.

الثالث: أنه أراد بالشقاء: الشقاء في طلب القوت وإصلاح المعاش، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة.

قال سعيد بن جبير: أهبط إلى آدم عليه السلام ثور أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه، فذلك شقاؤه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

فإن قيل: هل يجوز أن يقال: كان آدم عاصيًا وغاويًا أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟

قلنا: يجوز أن يقال: عصى آدم كما قال الله تعالى، ولا يجوز أن يقال: كان آدم عاصيًا؛ لأنه لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل: ألا ترى أنه يجوز أن يقال: تبارك الله، ولا يجوز أن يقال: الله تبارك، ويجوز أن يقال: تاب الله على آدم، ولا يجوز أن يقال: الله تائب، ونظائره كثيرة.

فإن قيل: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مدخل للقياس فيها، ولهذا يقال الله عالم، ولا يقال علامة، وإن كان هذا اللفظ أبلغ في الدلالة على معنى العلم، فأما أسماء البشر وصفاتهم فقياسية، فلم لا يجري فيها على القياس المطرد؟

قلنا: هذا القياس ليس بمطرد في صفات البشر أيضًا، ألا ترى أنهم قالوا: ذره ودعه بمعنى اتركه، وفلان يذر ويدع، ولو يقولوا منهما وذر ولا واذر، ولا ودع ولا وادع، فاستعملوا منهما الأمر والمضارع فقط.

ولقائل أن يقول: هذا شاذٌّ في كلام العرب ونادر، فلا يترك لأجله القياس المطرد، بل يجري على مقتضى القياس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي عن موعظتي أو عن القرآن، فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي حياة في ضيق وشدة، ونحن نرى المعرضين عن الإيمان والقرآن في أخصب معيشة وأرغدها؟

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله عنهما: المراد بالمعشية الضنك: الحياة في المعصية وإن كان في رخاء ونعمة، وروى عن النبي ﷺ أنها عذاب القبر.

الثاني: أن المراد بها عيشته في جهنم في الآخرة.

الثالث: أن المراد بها عيشه مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها، وهذه الآية في مقابلة قوله في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1]، فكل ما ذكرنا في تفسير الحياة الطيبة فضده وارد في المعيشة الضنك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه:١٢٩].

فإن قيل: أي الكلمات التي سبقت من الله فكانت مانعة من تعذيب هذه الأمة في الدنيا عذاب الاستئصال حتى قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾؟

قلنا: قيل: هي قوله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»، ويرد عليه أنه اختصاص لهذه الأمة بهذه الكلمة.

وقيل: هي قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[2].

وقيل: في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3] يعني لعالمي أمته بتأخير العذاب عنهم.

وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى، وهو الأجل الذي قدر الله تعالى بقاء العالم وأهله إلى انقضائه لكان العذاب لزامًا: أي

(١) النحل: ٩٧.
(٢) الأنفال: ٣٣.
(٣) الأنبياء: ١٠٧.

لازمًا لهم كما لزم الأمم التي قبلهم؟

وفي قوله تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى**﴾ [طه: ١٣٥].

فإن قيل: أصحاب الصراط السوي والمهتدون واحد، فما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿**فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى**﴾.

قلنا: المراد بأصحاب الصراط السوي السالكون الصراط المستقيم السائرون عليه، والمراد بالمهتدين الواصلون إلى المنزل.

وقيل: أصحاب الصراط السوي هم الذين مازالوا على الصراط المستقيم، والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطريق المستقيم ثم صاروا عليه.

وقيل: المراد بأصحاب الصراط السوي أهل دين الحق في الدنيا، والمراد بمن اهتدى المهتدون إلى طريق الجنة في العقبى، فكأنه قال: فستعلمون من المحق في الدنيا والفائز في الآخرة.

***

obeikandl.com

سورة الأنبيـــــاء

وفي قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وصفه بالقرب وقد مضى من وقت هذا الإخبار أكثر من ستمائة عام، ولم يوجد يوم الحساب بعد؟

قلنا: معناه أنه قريب عند الله تعالى وإن كان بعيدًا عند الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(٢)].

الثاني: أن معناه أنه قريب بالنسبة إلى ما مضى من الزمان، كما قال ﷺ: «**إن مثل ما بقى من الدنيا في جنب ما مضى كمثل خيط في ثوب**»[(٣)].

الثالث: أن المراد به قرب حساب كل واحد في قبره إذا مات، ويؤيده قوله ﷺ: «**من مات فقد قامت قيامته**»[(٤)].

الرابع: أن كل آتٍ قريب وإن طالت أوقات استقباله وترقبه، وإنما البعيد الذي وجد وانقرض، ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد إلى بلد بعد ما ولوا ظهورهم البلد الأول: البلد الثاني أقرب وإن كان أبعد مسافة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ والذكر الآتي من الله تعالى هو القرآن وهو قديم لا محدث؟

---

(١) المعارج: ٦.
(٢) الحج: ٤٧.
(٣) الشوكاني: فتح القدير، (٢/ ١٨١).
(٤) فتح القدير، (٥/ ٣).

قلنا: المراد محدث إنزاله.

الثاني: أن المراد به ذكر يكون غير القرآن من مواعظ الرسول ﷺ وغيره، ونسب إلى الله تعالى؛ لأن موعظة كل واعظ بإلهامه وهدايته.

الثالث: أن المراد بالذكر الذاكر وهو الرسول ﷺ، ويؤيده قوله تعالى في سياق: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[١]، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ﴾ أي: إلا استمعوا ذكره وموعظته.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، وهم لم يروا ذلك؟

قلنا: معناه أولم يعلموا ذلك بأخبار من قبلهم أو بوروده في القرآن الذي هو معجزة في نفسه، ونظيره قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا...﴾[٣] الآية، ونظائره كثيرة.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ مع أن الملائكة أحياء والجن أحياء، وليسوا مخلوقين من الماء، بل من النور والنار كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[٤]، وكذا آدم مخلوق من التراب وناقة صالح مخلوقة من الحجر؟

قلنا: المراد به البعض وهو الحيوان كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾[٦]، ونظائره كثيرة.

الثاني: أن الكل مخلوق من الماء، ولكن البعض بواسطة والبعض بغير واسطة، ولهذا

(١) الأنبياء: ٣.
(٢) النور: ٤١.
(٣) النور: ٤٣.
(٤) الرحمن: ١٥.
(٥) النمل: ٢٣.
(٦) يونس: ٢٢.

قيل: إنه تعالى خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء، وخلق الجن من نار خلقها من الماء، وخلق آدم من تراب خلقه من الماء.

وفي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بعد قوله: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وكأنه تكليف بما لا يطاق؟

قلنا: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها؛ لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة.

وفي قوله تعالى: ﴿لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣].

فإن قيل: النجوى المسارة، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾؟

قلنا: معناه بالغوا في إخفاء المسارة بحيث لم يفطن أحد لتناجيهم ومسارتهم تفصيلا ولا إجمالا، فإن الإنسان قد يرى اثنين يتساران فيعلم من حيث الإجمال أنهما يتساران، وإن لم يعلم تفصيل ما يتساران به، وقد يتساران في مكان لا يراهما أحد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى لمشركي مكة: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني فاسألوا أهل الكتاب عمن مضى من الرسل، هل كانوا بشرًا أم ملائكة؟ مع أن المشركين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟

قلنا: هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب، ولكن النقل المتواتر من أهل الكتاب في القضية العقلية يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن به.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ والاستحسار مبالغة في الحسور وهو الإعياء، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور أو مطلقه لا أقصاه؟

قلنا: إنما ذكر الاستحسار إشارة إلى أن ما هم فيه من التسبيح الدائم والعبادة المتصلة يوجب غاية الحسور وأقصاه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

فإن قيل: قوله تعالى في وصف الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ يدل على أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، فإذا كانوا لا يعصون الله تعالى فلم يخافون حتى قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾؟

قلنا: لما رأوا ما جرى على إبليس وعلى هاروت وماروت من القضاء والقدر خافوا من مثل ذلك.

الثاني: أن زيادة معرفتهم بالله وقربهم في محل كرامته يوجب مزيد خوفهم، ولهذا قال أهل التحقيق: مَنْ كان بالله أعرف كان من الله أخوف، ومَنْ كان إلى الله أقرب كان من الله أرهب.

وقال بعضهم: يا عجبًا من مطيع آمن ومن عاصٍ خائف.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ مع أن الصم لا يسمعون الدعاء إذا ما يبشرون أيضًا؟

قلنا: اللام في الصم إشارة للمنذرين السابق ذكرهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾، فهي لام العهد لا لام الجنس.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾

[الأنبياء:٦٣].

فإن قيل: كيف قال إبراهيم -صلوات الله عليه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ حال كسر الأصنام على الصنم الكبير، وكان إبراهيم هو الكاسر لها؟

قلنا: قاله على طريق الاستهزاء والتهكم بهم، لا على طريق الجد. الثاني أنه لما كان

الحامل له على كسرها اغتياظه من رؤيتها مصفوفة مرتبة للعبادة مبجلة معظمة، وكان اغتياظه من كبيرها أعظم لمزيد تعظيمهم له أسند الفعل إليه كما أسند إلى سببه، وإلى الحامل عليه.

الثالث: أنه أسنده إليه معلقًا بشرط منتفٍ لا مطلقًا تقديره: فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فإن قيل: كيف صح مخاطبة النار بقوله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، والخطاب إنما يكون مع من يعقل؟

قلنا: خطاب التحويل والتكوين لا يختص بمن يعقل: قال الله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

فإن قيل: كيف وصف الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكونهم من الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ...﴾ الآية، مع أن أكثر المؤمنين صالحون خصوصا في الزمن الأول؟

قلنا: معناه أنهم من الصالحين للإدخال في الرحمة التي أريد بها النبوة على ما فسره مقاتل، أو الجنة على ما فسره ابن عباس -رضي الله عنهما، ويؤيد ذلك قول سليمان - صلوات الله عليه: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الصالحين للعمل المرضي الذي سبق سؤاله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾

---

(١) سبأ: ١٠.
(٢) فصلت: ١١.
(٣) هود: ٤٤.

وقال في سورة «التحريم»: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[(١)].

قلنا: حيث أنت أراد النفخ في ذاتها، وإن كان مبدأ النفخ من الفرج الذي هو مخرج الولد أو جيب درعها على اختلاف القولين، لأنه فرجة، وكل فرجة بين شيئين تسمَّى فرجًا في اللغة، وهذا أبلغ في الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها مما لا يحل كانت لنفسها أمنع، وحيث ذكر فظاهر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ يدل على أنه يجب أن يرجعوا؛ لأن كل ما حرم أن لا يوجد وجب أن يوجد فكيف معنى الآية؟

قلنا: معناه وواجب على أهل قرية عزمنا على إهلاكهم أو قدرنا إهلاكهم أنهم لا يرجعون على الكفر إلى الإيمان، أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا، فالحرام هنا بمعنى الواجب، كذا قاله ابن عباس -رضي الله عنهما، ويؤيده قول الشاعر:

فَـإنَّ حَرامـا لا أرَى الـدَّهر باكيًـا

عَـلى شـجرة إلا بكيْـت عـلى عمـرو

وقيل: لفظ الحرام على ظاهره، ولا زائدة، والمعنى ما سبق ذكره، والحرمة هنا بمعنى المنع كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[(٣)].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

[الأنبياء: ١٠١].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وقال

(١) التحريم: ١٢.
(٢) القصص: ١٢.
(٣) الأعراف: ٥٠.

في موضع آخر: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[١] وواردها ليكون قريب منها لا بعيدًا.

قلنا: معناه مبعدون عن ألمها وعذابها مع كونهم واريها، أو معناه مبعدون عنها بعد ورودها بالإنجاء المذكور بعد الورود، فلا تنافي بينهما.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين الذين ماتوا على كفرهم بل نقمة؛ لأنه لولا إرساله إليهم لما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[٢].

قلنا: بل كان رحمة للكافرين أيضًا من حيث إن عذاب الاستئصال أُخر عنهم بسببه.

الثاني: أنه كان رحمة عامة من حيث إنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومن لم يتبعه فهو الذي قصر في حق نفسه وضيع نصيبه من الرحمة؛ ومثله ﷺ كمثل عين ماء عذبة فجرها الله تعالى، فسقى ناس زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا، وفرط ناس في السقي منها فضيعوا، فالعين في نفسها نعمة من الله تعالى للفريقين ورحمة، وإن قصر البعض وفرطوا.

الثالث: أن المراد بالرحمة الرحيم، وهو ﷺ كان رحيمًا للفريقين، ألا ترى أنهم لما شجوه يوم أحد وكسروا رباعيته حتى خر مغشيًا عليه، فلما أفاق قال: «**اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مع إخباره تعالى إياهم بقرب الساعة بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[٥] ونحوهما؟

قلنا: معناه ما أدري أن العذاب الذي توعدونه وتهددون به ينزل بكم عاجلاً أو

---

(١) مريم: ٧١.
(٢) الإسراء: ١٥.
(٣) الأحاديث المختارة، (١٠/ ١٤)، وابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، (١/ ١٥٩).
(٤) النحل: ١.
(٥) القمر: ١.

آجلاً، وليس المراد به قيام الساعة، ويرد على هذا الجواب أنه قريب على كل تقدير؛ لأنه إن كان قبل قيام الساعة فظاهر، وإن كان بعد قيام الساعة فهو كالمتصل بها لسرعة زمن الحساب، فيكون قريبا أيضًا.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

فإن قيل: إذا كان المؤمنون يعتقدون أن الله تعالى لا يحكم إلا بالحق، فما فائدة الأمر والإخبار المتعلق بهما بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾؟

قلنا: ليس المراد بالحق هنا ما هو نقيض الباطل، بل المراد به ما وعده الله تعالى إياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، ووعده لا يكون إلا حقا، فكأنه قال: عجل لنا وعدك وأنجزه، ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1].

الثاني: أنه تأكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة وإن كانت لازمة للفعل، ونظيره في عكسه من صفة الدم قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[2].

***

(١) الأعراف: ٨٩.
(٢) آل عمران: ١١٢.

سورة الحـــــج

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يدل على أن المعدوم شيء.

قلنا: لا نسلم، ومستنده أن المراد أنها إذا وجدت كانت شيئًا لا أنها شيء الآن، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾ مع أن المعدوم لا يوصف بالعظم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢].

فإن قيل: كيف قال تعالى أولاً: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ بلفظ الجمع، ثم أفرد فقال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾؟

قلنا: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس كلهم رائين لها وعلقت آخرًا بكون الناس على هيئة السكارى، فلا بدَّ أن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: ٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى في حق النضر بن الحارث: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ﴾ إلى أن قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾، وهو ما كان غرضه في جداله الضلال عن سبيل الله، فكيف علَّل جداله به وما كان أيضًا مهتديًا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟

قلنا: هذه لام العاقبة والصيرورة، وقد سبق ذكرها غير مرة، ولما كان الهدى معرضًا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال.

فإن قيل: النفع والضر منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معناه يعبد من دون الله ما لا يضره بنفسه إن لم يعبده، ولا ينفعه بنفسه إن عبده،

ثم قال: يعبد من يضره الله بسبب عبادته، وإنما أضاف الضرر إليه؛ لحصوله بسببه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ يدل على أن في عبادة الصنم نفعًا وإن كان فيها ضرر؟

قلنا: معناه أقرب من النفع المنسوب إليه في زعمهم، وهو اعتقادهم أنه يشفع لهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين، ولم يبيِّن ما الشيء الذي أذن لهم فيه؟

قلنا: تقديره، أذن للذين يقاتلون في القتال، وإنما حذف لدلالة يقاتلون عليه ولدلالة الحال أيضًا، فإن كفار مكة كانوا يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى وهم يستأذنون النبي ﷺ في قتالهم، فيقول: لم يؤذن لي في ذلك، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في الإذن في القتال، فنسخت سبعين آية ناهية عن القتال؛ كذا قاله ابن عباس - رضي الله عنهما، فكان المأذون فيه ظاهرًا لكونه مترقبًا منتظرًا.

وفي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ مع أنهم ما كانوا يقاتلون قبل نزول هذه الآية؟

قلنا: معناه أذن للذين يريدون أن يقاتلوا، سماهم مقاتلين مجازًا باعتبار ما يئولون إليه كما في النظائر، وقرئ ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ بفتح التاء، ولا إشكال على تلك القراءة.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [الأنبياء: ٤٠].

فإن قيل: كيف صح الاستثناء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾؟

قلنا: هو استثناء منقطع، تقديره: لكن أخرجوا بقولهم: ربنا الله.

الثاني: أنه بمنزلة قول الشاعر:

ولا عَيْبَ فِيهِم غير أن سيوفَهم

بهن فُلولٌ مِنْ قِراع الكتائب(١)

تقديره: إن كان فيهم عيب فهو هذا، وليس بعيب فلا يكون هذا فيهم عيبًا.

فإن قيل: أي سنة على المؤمنين في حفظ الصوامع والبيع والصلوات: أي الكناس عن الهدم حتى امتن عليهم بذلك في قوله تعالى: ﴿**لَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ...**﴾ الآية؟

قلنا: المنة في ذلك أن الصوامع والبيع والكنائس في حرم المسلمين وحراستهم وحفظهم؛ لأن أهلها ذمة للمسلمين.

الثاني: أن المراد به لهدمت صوامع وبيع في زمن عيسى ﷺ، وصلوات: أي كنائس في موسى ﷺ، ومساجد في زمن النبي ﷺ، فالامتنان على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى**﴾ [الحج: ٤٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَكُذِّبَ مُوسَى**﴾، ولم يقل: وقوم موسى، كما قال الله تعالى فيما قبله؟

قلنا: لأن موسى عليه السلام ما كذَّبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذَّبه غير قومه وهم القبط.

الثاني: أن يكون التنكير والإبهام للتفخيم والتعظيم؛ كأنه قال تعالى بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) ديوان النابغة الذبياني من قصيدة مطلعها:

فهم يتساقون المنية بينهم...

فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؟

قلنا: فائدته المبالغة في التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾[٢]، وما أشبه ذلك.

الثاني: أن القلب هنا يستعمل بمعنى العقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[٣] أي: عقل في أحد القولين، فكان التقييد احترازًا على قول من زعم أن العقل في الرأس.

وفي قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج:٥٠].

فإن قيل: المغفرة إنما تكون لمن يعمل السيئات لا لمن يعمل الصالحات والحسنات، فكيف قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؟

قلنا: المراد بالعمل الصالح هنا الإخلاص في الإيمان. قال الكلبي: كل موضع جاء في القرآن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فالمراد به الإخلاص في الإيمان، فيصير المعنى: فالذين آمنوا عن إخلاص تغفر لهم سيئاتهم.

فإن قيل: ما الفرق بين الرسول والنبي مع أن كليهما مرسل بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾[٤].

قلنا: الفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مَن جمع له بين المعجزة وأنزل الكتاب عليه، والنبي فقط مَن لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو أمته إلى شريعة مَنْ قبله.

وقيل: الرسول مَنْ كانت له معجزة من الأنبياء -عليهم السلام، والنبي مَن لم تكن له منهم معجزة، وفي هذا نظرٌ.

---

(١) الأنعام: ٣٨.
(٢) الفتح: ١١.
(٣) ق: ٣٧.
(٤) الحج: ٥٢.

وقيل: الرسول مَن كان مبعوثًا إلى أمة، والنبي فقط مَن لم يكن مبعوثًا إلى أحد مع كونه نبيًّا.

والجواب عن الآية على هذا القول أن فيه إضمارًا، تقديره: وما أرسلنا من رسول ولا نبأنا من نبي، أو ولا كان من نبي، ونظيره قوله الشاعر:

ورَأيتُ زَوْجَكِ في الوغى متقلدًا سيفًا ورُمحًا[1]

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾ [الحج: ٧٣].

فإن قيل: أين المثل المضروب في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾، والمذكور بعده وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ...**﴾ إلى آخره ليس بمثل، بل هو كلام مبتدأ مستقل بنفسه؟

قلنا: الصفة والقصة الغريبة أو المستحسنة تسمَّى مثلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾[2]، فالمعنى يثبت بصفة، وهي عجز الصنم عن خلق الذباب واستنقاذ ما يسلبه.

وقيل: هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا**﴾[3]، وإنما أبهمه هنا؛ لأنهم كانوا لا يصغون إلى سماع القرآن، ولهذا قالوا: ﴿**لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ**﴾[4]، وكان يحبون الأمثال، فذكر لفظ المثل استدراجًا لهم إلى سماع القرآن والإصغاء إليه.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ مع أن قطع اليد التي تساوي خمسة آلاف درهم بسبب سرقة عشر دراهم حرج في الدين؛ وكذا رجم المحصن بسب الوطء مرة واحدة، ووجوب صوم شهرين متتابعين بسبب إفطار يوم

---

(١) البيت لعبد الله بن الزبعري، وهو مطلع قصيدة من بيت واحد من بحر الكامل.
(٢) البقرة: ١٧.
(٣) العنكبوت: ٤١.
(٤) فصلت: ٢٦.

واحد من رمضان بوطء، والمخاطرة بالنفس والمال في الحج والعمرة وكل ذلك حرج بيِّن؟

قلنا: المراد بالدين كلمة التوحيد، فإنها تكفر شرك سبعين سنة، ولا يتوقف تأثيرها على الإيمان والإخلاص سبعين سنة، ولا على أن يكون الإثبات بها في بيت الله تعالى أو في زمان أو مكان معين.

وقيل: المراد به أن كل ما يقع فيه الإنسان من الذنوب والمعاصي يجد له مخرجًا في الشرع بتوبة أو كفارة أو رخصة.

وقيل: المراد به فتح باب التوبة للمذنبين، وفتح أبواب الرخص للمعذورين، وشروع الكفارات والأروش والديات.

وقيل: المراد به نفي الحرج الذي كان على بني إسرائيل من الإصر والتشديد.

وفي قوله تعالى: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ [الحج: ٧٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾؟ وإبراهيم -صلوات الله عليه- لم يكن أبًا للأمة كلها؟

قلنا: هو أبو رسول الله ﷺ، فكان أبًا لأمته؛ لأن أمة الرسول بمنزلة أولاده من جهة العطف والشفقة، هذا إن كان الخطاب لعامة المسلمين، وإن كان للعرب خاصة؛ فإبراهيم أبو العرب قاطبة.

فإن قيل: متى سمَّانا إبراهيم -صلوات الله عليه- المسلمين من قبل حتى قال الله تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾؟

قلنا: وقت دعائه عند بناء الكعبة؛ حيث قال: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**﴾، فكلُّ مَن أسلم من هذه الأمة؛ فهو ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام، وهذا السؤال سئلت عنه في المنام وأجبت بهذا الجواب في المنام إلهامًا من الله ﷻ.

***

سورة المؤمنـــين

في قولــه تعــالى: ﴿وَالَّــذِينَ هُــمْ لِفُــرُوجِهِمْ حَــافِظُونَ ۞ إِلاَّ عَــلَى أَزْوَاجِهِــمْ﴾ [المؤمنون:٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾، وحفظ الفرج إنما يعدى بـ«عن» لا بـ«على»، يقال: فلان يحفظ فرجه عن الحرام، ولا يقال: على الحرام؟

قلنا: «عَلَى» هنا بمعنى «عن»، كما في قول الشاعر:

إذا رضــيت عــليَّ بنــو قُشــير لعمــر الله أعجبنــي رضــاها

الثاني: أنه متعلق بمحذوف تقديره: فلا يرسلونها إلا على أزواجهم.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، ولم يقل: أو من ملكت أيمانهم، مع أن المراد مَن يعقل؟

قلنا: لأنه أراد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ كيف خص الإخبار عن الموت الذي لم ينكره الكفار بـ«لام التأكيد» دون الإخبار عن البعث الذي أنكروه، والظاهر يقتضي عكس ذلك؟

قلنا: لما كان العطف يقتضي الاشتراك في الحكم استغنى به عن إعادة لفظ اللام الموجبة لزيادة التأكيد، فإنها ثابتة معنى بقضية العطف، ولا يلزم على هذا عدم إعادة «أن»؛ لأنها الأصل في التأكيد، ولأنها أقوى والحاجة إليها أمس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾، والمراد بها شجرة الزيتون، وهي تخرج من الجبل الذي يسمَّى طور سيناء ومن غيره؟

قلنا: قيل: إن أصل شجرة الزيتون من طور سيناء، ثم نقلت إلى سائر المواضع، وقيل: إنما أضيفت إلى ذلك الجبل؛ لأن خروجها في غيره من المواضع.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ خبر عن كفار مكة، فكيف قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد أو بالقرآن، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾، ولم يقل: وكلهم، مع أن كلهم كانوا للتوحيد كارهين بدليل قولهم: ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾؟

قلنا: كان فيهم مَن ترك الإيمان به أنفةً واستنكافًا من توبيخ قومه لئلا يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب وغيره.

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

فإن قيل: كيف جمع ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، ولم يقل: ارجعني، والمخاطب واحد، وهو الله تعالى؟

قلنا: هو جمع للتفخيم والتعظيم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وأشباهه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[2]؟

قلنا: يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة، ففيه أحوال مختلفة، ففي بعضها يتساءلون، وفي بعضها لا ينطقون لشدة الهول والفزع.

***

(١) المؤمنون: ١٠١.
(٢) الطور: ٢٥.

سورة النـــــور

وفي قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

فإن قيل: كيف قدمت المرأة في آية حد الزنا، وقدم الرجال في حد السرقة؟

قلنا: لأنا الزنا إنما يتولد من شهوة الوقاع، وشهوة المرأة أقوى وأكثر، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والجراءة والقوة، وذلك في الرجل أكثر وأقوى.

وفي قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣].

فإن قيل: كيف قدَّم الرجل في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾؟

قلنا: لأن الآية الأولى سبقت لعقوبتها على ما جنيا، والمرأة هي الأصل في تلك الجناية لما ذكرنا.

والآية الثانية سبقت لذكر النكاح، والرجل هو الأصل فيه عرفًا؛ لأنه هو الراغب والخاطب والبادئ بالطلب، بخلاف الزنا فإن الأمر فيه بالعكس غالبًا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ أي: لا يتزوَّج، ﴿وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، ونحن نرى الزاني ينكح العفيفة والمسلمة، والزانية ينكحها العفيف والمسلم؟

قلنا: قال عكرمة: نزلت هذه الآية في بغايا موسرات كُنْ بمكة، وكانت بيوتهن تسمَّى في الجاهلية «المرضية»، وكان لا يدخل عليهن إلا زانٍ من أهل القبلة، أو مشرك من أهل الأوثان، فأراد جماعة من فقراء المهاجرين أن ينكحوهن فنزلت هذه الآية زجرًا لهم عن ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

فإن قيل: فائدة دخول «مِنْ» في غض البصر دون حفظ الفرج في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾؟

قلنا: ما فائدة الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج، ولهذا يحل النظر في ذوات المحارم والإماء المستعرضات إلى عدة من أعضائهن، ولا يحل شيء من فروجهن.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فإن قيل: ما حكمة ترك ذكر الأعمام والأخوال في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: الزينة الخفية ﴿إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية، وهم من المحارم وحكمهم حكم مَن استثنى في الآية؟

قلنا: سئل الشعبي عن ذلك، فقال: لئلا يصفها العم عند ابنه وهو ليس بمحرم لها، وكذا الحال فيفضي إلى الفتنة، والمعنى فيه أن كل مَن استثنى يشترك هو وابنه في المحرمية، إلا العم والخال، وهذا من الدلالة البليغة على وجوب الاحتياط في سترهن، ولقائل أن يقول: هذه المفسدة محتملة في آباء بعولتهن، لاحتمال أن يذكرها أبو البعل عند ابنه الآخر، وهو ليس بمحرم لها، وأبو البعل أيضًا نقض على قولهم: إن كل من استثنى يشترك هو وابنه في المحرمية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ مع أن إكراههن على الزنا حرام في كلِّ حال؟

قلنا: لأن سبب نزول الآية أن الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا مع إرادتهن التحصُّن، فورد النهي على السبب، وإن لم يكن شرطًا فيه.

الثاني: أنه تعالى إنما شرط إرادة التحصُّن؛ لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصُّن، لأن الأمة إذا لم ترد التحصُّن؛ فإنها تزني بالطبع، لأن إرادتها الجماع مستمرة في جميع الأحوال طبعًا، ولا بدَّ له من أحد الطريقين.

الثالث: أن «إن» بمعنى «إذ»، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

الرابع: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا تقديره: وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصنا ويبقى قوله: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ مطلقًا غير معلق.

وفي قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

فإن قيل: كيف مثل الله تعالى نوره: أي معرفته وهداه في قلب المؤمن بنور المصباح في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، ولم يمثله بنور الشمس، مع أن نورها أتم وأكمل؟

قلنا: المراد تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن بالمصباح: وهو الضوء أو الفتيلة في الزجاجة، والزجاجة في الكوة التي لا منفذ لها، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر.

الثاني: أن نور المعرفة له آلات يتوقف على اجتماعها؛ كالذهن والفهم والعقل واليقظة وانشراح القلب وغير ذلك من الخصال الحميدة، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة وغير ذلك.

الثالث: أن نور الشمس يشرق متوجها إلى العالم السفلي لا إلى العالم العلوي، ونور المعرفة يشرق متوجها إلى العالم العلوي كنور المصباح.

الرابع: أن نور الشمس لا يشرق إلا بالنهار ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح.

الخامس: أن نور الشمس يعم جميع الخلائق، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم كنور المصباح الموصوف.

---

(١) البقرة: ٢٧٨.

(٢) آل عمران: ١٣٩.

فإن قيل: إنه تعالى لم يمثله بنور الشمس لما ذكرتم، فكيف لم يمثله بنور الشمع مع أنه أتم وأكمل وأشرق من نور المصباح؟

قلنا: إنما لم يمثله بنور الشمع؛ لأن في الشمع غشًّا لا محالة بخلاف الزيت الموصوف، ولو مثله تعالى بنور الشمع لتطاول المنافق المغشوش إلى استحقاق نصيب في المعرفة.

الثاني: أنه تعالى إنما لم يمثله بنور الشمع؛ لأنه مخصوص بالأغنياء، بخلاف نور المعرفة فإنه في الفقراء أغلب.

وفي قوله تعالى: ﴿**رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ**﴾ [النور: ٣٧].

فإن قيل: التجارة تشمل الشراء والبيع، فما فائدة عطف البيع عليها في قوله تعالى: ﴿**لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ**﴾؟

قلنا: التجارة هي الشراء والبيع الذي يكون صناعة للإنسان مقصودًا به الربح، وهو حرفة الشخص الذي يسمَّى تاجرًا، والبيع أعم من ذلك.

وقيل: المراد بالتجارة هنا مبادلة الآخرة بالدنيا كما في قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ**﴾[1]، والمراد بالبيع مبادلة الدين بالدنيا كما في قوله تعالى: ﴿**فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**﴾[2].

وقيل: إنما عطف البيع على التجارة؛ لأنه أراد بالتجارة الشراء إطلاقًا لاسم الجنس على النوع.

وقيل: إنما عطف عليها للتخصيص والتمييز من حيث إنه أبلغ في الإلهاء، لأن البيع الرابح يعقبه حصول الربح، بخلاف الشراء الرابح، فإن الربح فيه مظنون مع كونه مترقبًا منتظرًا.

وقيل: التجارة مخصوصة بأهل الجلب بخلاف البيع.

---

(١) البقرة: ١٦.

(٢) الجمعة: ٩.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَّاءٍ﴾، وبعض الدواب ليس مخلوقًا من الماء؛ كآدم عليه السلام وناقة صالح وغيرهما؟

قلنا: المراد بهذا الماء: الماء الذي هو أصل جميع المخلوقات، وذلك أن الله تعالى خلق قبل خلق الإنسان جوهرة ونظر إليها نظر هيبة فاستحالت ماء، فخلق من ذلك الماء جميع الموجودات، وقد سبق مثل هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

فإن قيل: إذا كان الجواب هذا، فما فائدة تخصيص الدابة بالذكر أو تخصيص الشيء الحي.

قلنا: إنما خصَّ الدابة بالذكر؛ لأن القدرة فيه أظهر وأعجب منها في الجماد وغيره.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾[2]، وهي مما لا يعقل؟

قلنا: لما كان اسم الدابة يتناول المميز وغيره غلب المميز على غيره، فأجرى عليه لفظه.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾، وذلك إنما يسمَّى زحفًا لا مشيًا، ولا يسمَّى مشيًا إلا ما كان بالقوائم؟

قلنا: هو مجاز بطريق المشابهة، كما يقال: مشى هذا الأمر، وفلان لا يتمشى له أمر، وفلان ماشي الحال.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور: ٥٨].

فإن قيل: كيف أمر الله تعالى بالاستئذان للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾، أي: من الأحرار؟

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

قلنا: هو في المعنى أمر للآباء والأمهات بتأديب الأطفال وتهذيبهم لا للأطفال.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ**﴾ [النور: ٦٠].

فإن قيل: كيف أباح تعالى القواعد من النساء وهن العجائز التجرد من الثياب بحضرة الرجال بقوله تعالى: ﴿**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ...**﴾ الآية؟

قلنا: المراد بالثياب هنا الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار لا جميع الثياب، وقوله تعالى: ﴿**غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ**﴾، أي: غير قاصدات بوضع الثياب الثياب الظاهرة إظهار زينتهن ومحاسنهن، بل التخفيف، ثم أعقبه بأن التعفف بترك الوضع خير لهن.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ**﴾ [النور: ٦١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ**﴾ مع أن انتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيته معلوم لا شكَّ فيه ولا شبهة؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿**مِن بُيُوتِكُمْ**﴾ أي: من بيوت أولادكم؛ لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه، فلهذا عبَّر عنه به، وفي الحديث: «**إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه**»، ويؤيد ذلك أنه ذكر بيوت جميع الأقارب ولم يذكر بيوت الأولاد.

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿**أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ**﴾ أي: من مال أولادكم وأزواجكم الذين هم في بيوتكم ومن جملة عيالكم.

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿**مِن بُيُوتِكُمْ**﴾ البيوت التي يسكنونها وهم فيها عيال لغيرهم، كبيت ولد الرجل وزوجته وخادمه ونحو ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ [النور: ٦١].

فإن قيل: معنى السلام هو السلامة والأمن، فإذا قال الرجل لغيره: السلام عليك؛

كان معناه سلمت مني وأمنت، فما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾؟

قلنا: المراد به فإذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلكم وعيالكم.

وقيل: معناه إذا دخلتم المساجد أو بيوتًا ليس فيها أحد، فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، يعني من ربنا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، وإنما يقال: خالف أمره؟

قلنا: «عن» زائدة؛ كذا قاله الأخفش.

الثاني: أن فيه إضمارًا تقديره: فليحذر الذين يخالفون الله تعالى ويعرضون عن أمره، أو ضمن المخالفة معنى الإعراض فعدى تعديته.

***

obeikandl.com

سورة الفرقان

في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فإن قيل: الخلق هو التقدير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾[1] أي تقدر، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾، فكأنه تعالى قال: وقدر كل شيء فقدره تقديرًا.

قلنا: الخلق من الله تعالى بمعنى الإيجاد والإحداث، فمعناه: وأوجد كل شيء مقدرًا مسوى مهيأ لما يصلح له، لا زائدًا على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ولا ناقصًا عن ذلك.

الثاني: أن معناه: وقدر له ما يقيمه ويصلحه؛ أو قدر له رزقًا وأجلاً وأحوالاً تجرى عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥].

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الجنة: ﴿الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾، وهي ما كانت بعدُ، وإنما تكون كذلك بعد الحشر والنشر؟

قلنا: إنما قال: «كانت»؛ لأن ما وعده الله تعالى فهو في تحققه كأنه قد كان، أو معناه كانت في علم الله مكتوبة في اللوح المحفوظ أنها جزاؤهم ومصيرهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

فإن قيل: ما فائدة تأخير الهوى في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ والأصل اتخذ الهوى إلهًا كما تقول: اتخذ الصنم معبودًا؟

قلنا: هو من باب تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية به، كما تقول: علمت منطلقًا

(١) المائدة: ١١٠.

زيدًا الفضل بعنايتك بانطلاقه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟

قلنا: قد مرَّ مثل هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

فإن قيل: كيف شبَّههم ﷻ بالأنعام في الضلال بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾، مع أن الأنعام تعرف الله ﷻ وتسبحه بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[2]؟

قلنا: المراد تشبيههم بالأنعام في الضلال عن فهم الحق ومعرفة الله تعالى بواسطة دعوة الرسول ﷺ.

الثاني: أن المراد تشبيههم في الضلال والعمى عن أمر الدين بالأنعام في ضلالها وعماها عن أمر الدين.

فإن قيل: إن كانوا كالأنعام في الضلال، فكيف قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾، وإن كانوا أضل من الأنعام، فكيف قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾ وإن كانوا كالأنعام في الضلال وأضل منها أيضًا، فكيف يجتمع الوصفان؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾ التشبيه في أصل الضلال لا مقداره.

والثاني: بيان لمقداره. وقيل: المراد بالأول التشبيه في المقدار أيضًا، ولكن المراد بالأول طائفة وبالثاني طائفة أخرى، ووجه كونهم أضل من الأنعام أن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف مَن يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو

(١) الإسراء: ٤٤.
(٢) الجمعة: ١.

عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العذاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۞ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ كيف ذكر الصفة والموصوف مؤنث ولم يؤنثها كما أنثها في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾[1]؟

قلنا: إنما ذكرها نظرًا إلى معنى البلدة وهو البلد والمكان لا إلى لفظها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۞ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾، فإنزاله موصوفًا بالطهورية، وتعليل ذلك بالإحياء والسقي يشعر بأن الطهورية شرط في حصول تلك المصلحة، كما تقول: حملني الأمير على فرس سابق لأصيد عليه الوحش وليس كذلك.

قلنا: وصف الطهورية ذكر إكرامًا للأناسي الذين شربهم من جملة المصالح التي أنزل لها الماء، وإنما للمنة عليهم والنعمة عليهم؛ لا لكونه شرطًا في تحقق تلك المصالح والمنافع، بخلاف النظير فإنه قصد بكونه سابقًا الشرطية؛ لأن صيد الوحش على الفرس لا يتم إلا بها.

فإن قيل: كيف خصَّ تعالى الأنعام بذكر السقي دون غيرها من الحيوان الصامت؟

قلنا: لأن الوحش والطير تبعد في طلب الماء ولا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام.

الثاني: أن الأنعام قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها، فكأن الأنعام يسقي الأنعام، كالأنعام يسقي الأناسي، فلذلك خصها بالذكر.

فإن قيل: كيف قدَّم تعالى إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟

قلنا: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدَّم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم.

---

(١) يس: ٣٣.

الثاني: أن سقي الأرض بماء المطر سابق في الوجود على سقي الأناسي به.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٥٧].

فإن قيل: ما وجه صحة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾؟

قلنا: هو استثناء منقطع تقديره: لكن مَن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، فأنا أدله على ذلك وأهديه إليه.

وقيل: تقديره: لكن مَن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بإنفاق ماله في مرضاته فليفعل ذلك.

فإن قيل: كيف قال تعالى هنا: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: أجرًا؛ لأن «من» لتأكيد النفي وعمومه، وقال في آية أخرى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، فأثبت سؤال الأجر عليه؟

قلنا: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾[2] رواه مقاتل والضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- والصحيح الذي عليه المحققون أنها غير منسوخة، بل هو استثناء من غير الجنس، تقديره: لكن أذكركم المودة في القربى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، ولم يقل: أئمة؟

قلنا: مراعاة لفواصل الآيات، وقيل: تقديره: واجعل كل واحد منا إمامًا.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا﴾[3]، وهما بمعنى واحد

(١) الشورى: ٢٣.
(٢) سبأ: ٤٧.
(٣) الفرقان: ٧٥.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ﴾[١]، وقوله ﷺ: «تحية أهل الجنة في الجنة سلام»[٢].

قلنا: قال مقاتل: المراد بالتحية سلام بعضهم على بعض أو سلام الملائكة عليهم، والمراد بالسلام أن الله تعالى سلمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم.

وقيل: التحية من الملائكة أو من أهل الجنة، والسلام من الله تعالى لهم عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[٣].

وقيل: التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف والسلام بالقول.

وقيل: التحية الدعاء بالتعمير، والسلام الدعاء بالسلامة، فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم من بعض، أو يلقون ذلك من الله تعالى، فيعطون البقاء والخلود مع السلامة من كلِّ آفة.

* * *

(١) الأحزاب: ٤٤.
(٢) فيض القدير، (١/ ٥٦٦).
(٣) يس: ٥٨.

obeikandl.com

سورة الشعراء

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾، والأعناق لا تخضع؟

قلنا: قيل: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين فاقتحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله؛ كقولهم: ذهبت أهل اليمامة، كان الأهل غير المذكور، ومثله قول الشاعر:

رَأَتْ مر السِّنين أخذْنَ مِنيَ كما أخذ السرار من الهلال[1]

أو لما وصفت الأعناق بالخضوع الذي هو من صفات العقلاء جمعت جمع العقلاء؛ كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2].

وقيل: الأعناق رؤساء الناس ومقدموهم شبهوا بالأعناق، كما قيل لهم الرءوس والنواصي والوجوه.

وقيل: الأعناق الجماعات، يقال: جاءني عنق من الناس، أي: جماعة.

وقيل: إن ذلك لمراعاة الفواصل.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأفرد، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَا رَسُولا رَبِّكِ﴾[3] فثنى؟

قلنا: الرسول يكون بمعنى المرسل، فيلزم تثنيته، ويكون بمعنى الرسالة التي هي المصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر، والدليل على أنه

---

(١) ديوان جرير من قصيدة مطلعها:

لقد نادى أمير باحتمال...

(٢) يوسف: ٤.

(٣) طه: ٤٧.

يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول[١]

أي: برسالة.

الثاني: أنهما لاتفاقهما في الأخوة والشريعة والرسالة جعلا كنفس واحدة.

الثالث: أن تقديره: إن كل واحد منا رسول رب العالمين.

الرابع: أن موسى عليه السلام كان الأصل، وهارون عليه السلام كان تبعًا له، فأفرد إشارة إلى ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾ [الشعراء: ٢٠].

فإن قيل: كيف قال موسى عليه السلام معتذرًا عن قتل القبطي: ﴿**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾، والنبي لا يكون ضالاً؟

قلنا: أراد به: وأنا من الجاهلين، وكذا قراءة ابن مسعود رضي الله عنه.

وقيل: أراد من المخطئين؛ لأنه ما تعمد قتله كما يقال: ضلَّ عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ.

وقيل: من الناسين؛ كقوله تعالى: ﴿**أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**﴾[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٣].

فإن قيل: كيف قال فرعون: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾، ولم يقل: ومن رب العالمين؟

قلنا: هو كان أعمى القلب عن معرفة الله تعالى منكرًا لوجوده؛ فكيف ينكر عليه العدول عن «من» إلى «ما»؟

الثاني: أن «ما» لا تختص بغير المميز، بل تطلق عليهما، قال الله تعالى: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ**﴾[٣]، وقال الله تعالى: ﴿**وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾[٤].

---

(١) ديوان كثير عزة من قصيدة مطلعها:

تواهقن بالحجاج من بطن نخلة ...

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) النساء: ٣.

(٤) الكافرون: ٦.

فإن قيل: كيف قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُم مُّوقِنِينَ﴾ علَّق كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما بشرط كون فرعون وقومه موقنين، وهذا الشرط منتفٍ والربوبية ثابتة؛ فكيف صحَّ التعليق؟

قلنا: معناه: إن كنتم موقنين أن السموات والأرض وما بينهما موجودات وهذا الشرط موجود.

الثاني: أن «إن» نافية لا شرطية.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

فإن قيل: كيف ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب ذلك المخلوقات كلها، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[1].

قلنا: أعاد ذكرها تخصيصًا لها وتمييزًا؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والنقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ولادته إلى وقت وفاته، ثم خصَّ المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحدهما وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السَّنة وحساب مستوٍ من أظهر ما يستدل به على وجود الصانع، ولظهوره انتقل خليل الله -صلوات الله عليه وسلامه- إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُم مُّوقِنِينَ﴾

[الشعراء: ٢٤].

فإن قيل: كيف قال أولاً: ﴿إِن كُنْتُم مُّوقِنِينَ﴾، وقال آخرًا: ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟

قلنا: لاينهم ولاطفهم أولاً، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم وعرض قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ بقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) الشعراء: ٢٨.

فإن قيل: قوله: (لأسجننك) أخصر من قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾؛ فكيف عدل عنه؟

قلنا: كان مراده تعريف العهد، فكأنه قال: لأجعلنك واحدًا ممن عرفت حالهم في سجني، وكان إذا سجن إنسانًا طرحه في هوة عميقة جدًّا مظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكاية.

فإن قيل: قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة ذكرت في سورة «الأعراف»، ثم في سورة «طه»، ثم في هذه السورة، فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص؟

قلنا: فائدته تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز، كما أن المبارز إذا خرج من الصف قال: «نزال نزال... هل من مبارز؟ هل من مبارز؟» مكررًا ذلك، يقال: ولهذا سمَّى الله تعالى القرآن «مثاني»؛ لأنه ثنيت فيه الأخبار والقصص.

الثاني: أن أصحاب النبي ﷺ كان بعضهم حاضرين وبعضهم غائبين في الغزوات، وكانوا يحبون حضور مهبط الوحي، وكانوا إذا رجعوا من غزوهم أكرمهم الله تعالى في بعض الأوقات بإعادة الوحي تشريفًا لهم وتفضيلاً.

فإن قيل: كيف كرَّر الله تعالى ذكر قصة موسى عليه السلام أكثر من قصص غيره من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام؟

قلنا: لأن أحواله كانت أشبه بأحوال النبي ﷺ من أحوال غيره منهم في إقامته الحجج وإظهاره المعجزات لأهل مصر وإصرارهم على تكذيبه والجفاء كما كان حال النبي ﷺ مع أهل مكة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

[الشعراء: ٦١].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾، والترائي تفاعل من الرؤية، فيقتضي وجود رؤية كل جمع الجمع الآخر والمنقول أنهم لم ير بعضهم بعضًا، فإن الله تعالى أرسل غيمًا أبيض فحال بين العسكرين حتى منع رؤية بعضهم بعضًا؟

قلنا: التراءي يستعمل بمعنى التداني والتقابل أيضًا، كما قال ﷺ: «**المؤمن والكافر لا يتراءيان**»، أي: لا يتدانيان، ويقال: دورنا تتراءى، أي: تتقارب وتتقابل.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ [الشعراء: ٨٠].

فإن قيل: كيف قال: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ**﴾، ولم يقل: وإذا أمرضني، كما قاله قبله: ﴿**خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾؟

قلنا: لأنه كان في معرض الثناء على الله تعالى وتعديد نعمه، فأضاف إليه الخير المحض حفظًا للأدب، وإن كان الكل مضافًا إليه، ونظيره قول الخضر عليه السلام: ﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾، وقوله: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا**﴾.

فإن قيل: هذا الجواب يبطل بقوله: ﴿**وَالَّذِي يُمِيتُنِي**﴾، وبقول الخضر: ﴿**فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا**﴾[1]. قلنا: إنما أضاف الموت إلى الله؛ لأنه سبب لقائه إياه وانتقاله إلى دار كرامته، فكان نعمة من هذا الوجه. وقيل: إنما أضاف المرض إلى نفسه؛ لأن أكثر الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه.

وفي قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ**﴾ [الشعراء: ٨٨].

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ**﴾، والمال الذي أنفق في طاعة الله تعالى وسبيله ينفع، والولد الصالح ينفع؛ والولد الذي مات صغيرًا يشفع، وشواهد ذلك كثيرة من الكتاب والسُّنة خصوصًا قوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم ينقطع عمله إلا من ثلاث...**»[2] الحديث؟ قلنا: المراد بالآية أنهما لا ينفعان غير المؤمن، فإنه هو الذي يأتي بقلب سليم من الكفر، أو المراد بهما مال لم ينفق في طاعة الله تعالى وولد بالغ غير صالح.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٠].

فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، أي: قربت، والجنة لا تنقل من مكانها ولا تحول؟

قلنا: فيه قلب، معناه: وأزلفت المتقون إلى الجنة، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة:

---

(١) الكهف: ٨١.

(٢) كشف الخفاء، (١/ ١٠٥).

قربت مكة منا. وقيل: معناه: أنها كانت محجوبة عنهم، فلما رفعت الحجب بينهم وبينها كان ذلك تقريبًا لها.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

فإن قيل: كيف جمع الشافع ووحد الصديق في قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. قلنا: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديقين، ولهذا روي أن بعض الحكماء سئل عن الصديق؟ فقال: هو اسم لا معنى له، أراد بذلك عزة وجوده، ويجوز أن يراد بالصديق الجمع كالعدو.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣].

فإن قيل: كيف قرن بين الأنعام والبنين في قوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾؟

قلنا: لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها، فلهذا قرن بينهما.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

فإن قيل: قوله تعالى: (أوعظت أو لم تعظ) أخصر من قوله: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾؛ فكيف عدل عنه؟

قلنا: مرادهم: سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلاً، وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولهم أولم تعظ؟!

وفي قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧]. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۞ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كيف أخذهم العذاب بعد ما ندموا على جنايتهم، وقد قال ﷺ: «الندم توبة»[(١)]؟

قلنا: قال ابن عباس -رضي الله عنهما: ندموا حين رأوا العذاب، وذلك ليس وقت التوبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...﴾[(٢)] الآية.

(١) المستدرك على الصحيحين، (٤/ ٢٧١).
(٢) النساء: ١٨.

وقيل: كان ندمهم ندم خوف من العذاب العاجل لا ندم توبة، فلذلك لم ينفعهم.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩].

فإن قيل: كيف طلب لوط عليه السلام تنجيته من اللواطة بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ واللواطة كبيرة، والأنبياء معصومون من الكبائر؟

قلنا: مراده: ربِّ نجني وأهلي من عقوبة عملهم أو من شؤمه، والدليل على ذلك ضمه أهله إليه في الدعاء، واستثناء الله تعالى امرأته من قبول الدعوة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧].

فإن قيل: كيف قال تعالى في قصة شعيب عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل: أخوهم، كما قال تعالى في حق غيره هنا، وكما قال في حقه في موضع آخر؟

قلنا: لأنه هنا ذكر مع أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم، وإنما كان من نسل مدين، كذا قال مقاتل، وفي الحديث أن شعيبًا عليه السلام أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة. وقال ابن جرير الطبري: أهل مدين هم أصحاب الأيكة، فعلى هذا يكون حذف الأخ تخفيفًا.

فإن قيل: ما الفرق بين حذف «الواو» في قصة صالح عليه السلام وإثباتها في قصة شعيب في قولهم: ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾؟

قلنا: الفرق بينهما أنه عند إثبات «الواو» المقصود معنيان كلاهما منافٍ للرسالة عندهم التسخير والبشرية، وعند حذف «الواو» المقصود معنى واحد منافٍ لها وهو كونه مسخر، ثم قرَّروا التسخير بالبشرية، كذا أجاب الزمخشري رحمه الله.

فإن قيل: كيف قال تعالى في وصف الكهنة والمتنبئة كشق وسطيح ومسيلمة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ بعدما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك أثيم، والأفاك الكذاب، والأثيم الفاجر، ويلزم من هذا أن يكون كلهم كذابين؟

قلنا: الضمير في قوله: «وَأَكْثَرُهُمْ» عائد إلى الشياطين لا إلى كل أفاك.

***